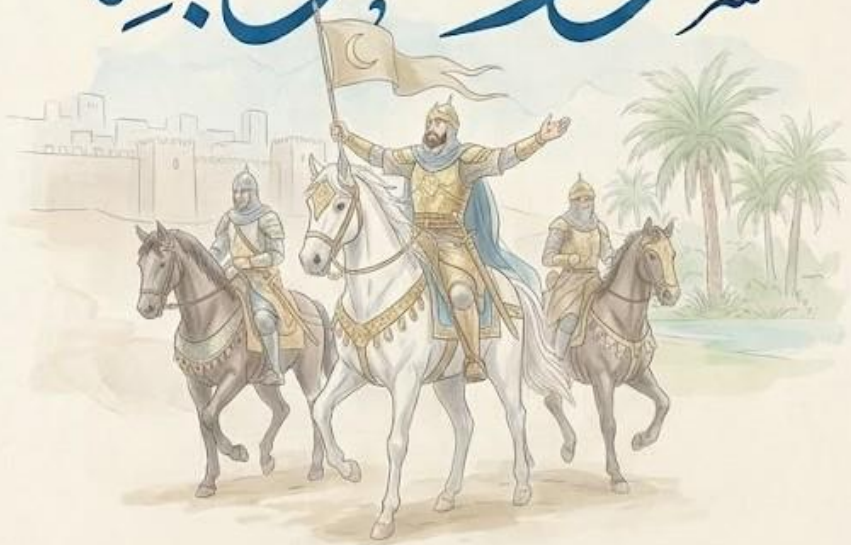


سُورَةُ التَّوْبَةِ



حِينَ يُمَتِّحُنْ صَدَقُ الْإِيمَانِ عَلَى أَرْضِ الْوَقَائِعِ

مُحَمَّدٌ رَدَّادُ السَّلَامِ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

حِينَ يُمْتَحَنُ صِدْقُ الْإِيمَانِ عَلَى أَرْضِ الْوَقْعِ

رداد السلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

في مدخل القراءة ومسالك التدبر

ليست سورة التوبة سورةً يسهل الوقوف أمامها من بعيد؛ فهي لا تمنح قارئها ترف الحياء، ولا تتركه طويلاً في منطقة المشاهدة. إنها من السور التي تستدعي الإنسان من وراء النص لتضعه أمام نفسه: أمام حقيقة إيمانه، ووزن ولائه، وصدق عهده، ومقدار ما يستطيع أن يدفعه حين تتحول العقيدة من معنى يحمله القلب إلى تكليف يطالب الحياة بثمنه.

ولعل هذا بعض سر هيبتها.

فهي السورة الوحيدة في المصحف التي لا تتصدرها البسملة، وتبدأ بكلمة تبدو كأنها قادمة من قلب الموقف مباشرة: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ).

ومن هذه الكلمة الأولى نعرف أننا أمام سورة لا تؤجل الحقيقة، ولا تغطي التناقضات بالألفاظ اللينة؛ سورة جاءت في مرحلة نضج فيها المجتمع المسلم، واتسعت دولته، وتمايزت الصفوف، وصار ضرورياً أن يُعرف المؤمن من

المنافق، وصادق العهد من ناقضه، وصاحب العقيدة من صاحب المصلحة الذي سار معها ما دامت الطريق مفروشةً بالمكاسب.

غير أن من الخطأ أن تُقرأ سورة التوبة بوصفها «سورة القتال» فحسب. فهذا الوصف، وإن التقط جانباً ظاهراً من موضوعاتها، فإنه يضيق أفقها الواسع. إن القتال فيها جزء من بناء أكبر؛ بناء يريد تحرير الجماعة المؤمنة من الخيانة في الخارج، ومن النفاق في الداخل، ومن التعلق بالدنيا في أعماق النفس.

ولهذا كانت «التوبة» اسماً بالغ الدلالة عليها.

إنها سورة الشدة التي يجري تحت صخورها نهر الرحمة.

كلما كُشف انحراف، فُتِحَ إلى جواره باب العودة. وبعد الحديث عن الشرك تأتي التوبة، وبعد التآمر تأتي التوبة، وبعد التخلف تأتي التوبة، وحتى أولئك الثلاثة الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت لم تنته قصتهم عند الضيق، بل عند هذه الآية التي تكاد تختصر روح السورة كلها: (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا).

وكان السورة لا تفضح الإنسان لتشهّر به، وإنما تكشف مرضه لكي يراه. فالمرء لا يتوب من شيء لا يعترف بوجوده، ولا يطلب الشفاء من داءٍ أقنع نفسه أنه عافية.

ومن هنا جاءت هذه القراءة.

لم أرد فيها أن أكتب تفسيرًا اصطلاحيًا جديدًا لسورة التوبة، ولا أن أناقش كتب المفسرين التي بسطت أسباب النزول، والأحكام، والقراءات، واللغة، والخلاف الفقهي. إنما حاولت أن أقف بعد المعنى التفسيري المعتمد، وأن أنظر: ماذا تصنع الآية في النفس إذا اقتربنا منها؟ وما الذي تكشفه عن طبيعة الإنسان؟ وكيف تنتقل الحادثة التاريخية من زمنها الأول لتصبح قانونًا في قراءة المواقف والقلوب والمجتمعات؟

فالمنهج الذي سارت عليه هذه الرحلة يقوم أولاً على احترام المعنى الذي تدل عليه الآية في سياقها. لا تُقتلع الآية من موضعها التاريخي لثُحْمَل ما لا تحتل، ولا تتحول الإشارة الأدبية إلى تفسير بديل عن مدلول النص. نبدأ من ظاهر المعنى، ونستضيء بالسياق، ثم نتحرك في المساحة التي يفتحها التدبر لاستخراج الدلالة النفسية والأخلاقية والإنسانية.

ولهذا كان السياق في سورة التوبة ضرورة خاصة.

فآيات القتال مثلاً لا يجوز أن تُنتزع من شبكة العهود ونقضها، والإنذار والمهلة، والاستقامة لمن استقام، والأمان لمن استجار. إن قراءة قوله تعالى: (فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)

بعيداً عن قوله قبلها: (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ)

وعن قوله بعدها: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ)

ليست قراءة ناقصةً فحسب؛ بل تفقد شيئاً من الميزان الذي أقامه النظم القرآني بنفسه. فالسياق هنا ليس إطاراً خارجياً للمعنى، بل جزء من بنائه.

ثم سعت إلى قراءة السورة بوصفها بناءً متصلاً، لا مائةً وتسعاً وعشرين جزيرة منفصلة.

فالبراءة في أولها تتصل بـ(حَسْبِيَ اللَّهُ) في آخرها. وبينهما رحلةٌ كاملة في تحرير الولاء: براءةً من العهد الذي خان أصحابه، وبراءةً من الشرك، وبراءةً من سلطان المال، ومن رهبة القوة، ومن ضغط القرابة، ومن النفاق الذي يريد الاحتفاظ بصورة الإيمان دون أن يدفع تكاليفه؛ حتى يصل القلب في النهاية إلى كفايته الكبرى: (حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ).

ولهذا رأيت أن أحد الخيوط الجامعة للسورة هو امتحان الصدق.

فالناس في أوقات السعة يستطيعون أن يتشابهوا. الصلاة واحدة في الظاهر، والكلمات متقاربة، والانتساب معلن. لكن تبوك جاءت، والحر شديد، والمسافة بعيدة، والثمار قد أينعت، والعدو مهيب؛ وهنا بدأت الآيات تكشف الفارق بين من حمل الإيمان ومن حمل اسمه.

إن «ساعة العسرة» ليست مجرد واقعة عسكرية في السورة؛ إنها مختبرٌ قرآني للنفس البشرية.

هناك ظهر من يبكي لأنه لا يجد ما يحمله إلى الطريق: (تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ).

وظهر في الجهة الأخرى من يملك القدرة والمال ثم: (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ).

الأول غاب جسده وحضر قلبه، والثاني حضر في المجتمع وغاب عن حقيقة الإيمان.

ومن هنا حاولت في هذه الصفحات أن أقرأ الحركة الباطنية تحت الحركة الظاهرة: ماذا يصنع الخوف؟ كيف تتنكر المصلحة في صورة حجة؟ لماذا يحتاج المنافق إلى الإيمان الكثيرة؟ كيف يتحول المال من نعمة إلى قيد؟ ولماذا يبني النفاق أحياناً «مسجداً» بدل أن يبني وثناً؟

فقصة مسجد الضرار، مثلاً، ليست عند التدبر مجرد خبر عن مبنى هُدم في المدينة؛ إنها تكشف قانوناً بالغ الخطورة: أن الاسم المقدس لا يطهر المقصد الفاسد. يمكن للباطل أن يتعلم لغة الخير، وأن يستعير شكل المؤسسة الصالحة، وأن يقول: (إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى).

لكن القرآن ينزل تحت العنوان إلى الأساس، ويسأل السؤال الذي ينبغي أن نسأله عن كل بناء: (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ).

ومن ركائز هذه القراءة كذلك التفريق بين التفسير والتدبر.

فالتفسير يسأل: ماذا تعني الآية في لسان العرب وسياق النزول ودلالة النص؟ أما التدبر فيسأل، بعد ثبوت ذلك المعنى: ماذا يفتح هذا المعنى من بصيرة؟ ماذا يكشف عني وعن الحياة؟ وما القانون الذي يمكن أن أراه ممتدًا من الحادثة إلى النفس الإنسانية دون أن أزعج أن تأملي هو التفسير الحصري للآية؟

وهذه المسافة ضرورية؛ لأن جمال التدبر لا يمنحه الحق في أن يقول على القرآن ما لا يحتمل، كما أن الانضباط التفسيري لا ينبغي أن يحول النص إلى معلومة باردةٍ تنتهي وظيفتها عند شرح المفردات.

لقد حاولت أن تبقى اللغة في هذه الرحلة قريبةً من القلب دون أن تتقدم على النص؛ وأن تكون الصورة الأدبية خادمةً للمعنى لا صانعةً لمعنى غريب عنه. فحين شبّهنا بعض حالات النفاق بالقناع، أو تحدثنا عن المال حين ينتقل من اليد إلى القلب، أو عن العذر الذي يصبح ستارًا للهوى، فإنما هي محاولات لتقريب البنية النفسية التي تكشفها الآيات، لا لإضافة معنى عقدي أو تشريعي لم تكله.

كما التزمْتُ ألا تُستخدم السورة أداةً لتفتيش قلوب الناس.

إن آيات النفاق مرعبة؛ لأنها تكشف علاماتٍ ينبغي أن يخاف منها الإنسان على نفسه قبل أن يرمي بها غيره. والقرآن نفسه يقول عن فريق من المنافقين للنبي ﷺ: (لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ).

فإذا كان رسول الله ﷺ لا يعلم كل منافق بعينه إلا بما أطلع الله عليه، فأحرى بنا أن نقف عند حدود الظاهر، وأن نجعل هذه الآيات مرايا للمراجعة لا سكاكين لتشريح صدور الخصوم.

وهكذا يصبح سؤال سورة التوبة موجَّهًا إليّ أنا أولاً:

ماذا لو جاءت ساعتني أنا من العسرة؟

ماذا لو تعارض الحق مع مالي؟

ماذا لو هدد موقفي تجارتي؟

ماذا لو وقفت القرابة في جهة والتكليف في جهة؟

ماذا لو أصبح الاعتراف بخطئي أغلى من قدرتي على احتمال صورتي أمام الناس؟

هل سأكون من الذين يبحثون عن عذر، أم من الذين يبحثون عن طريق؟

وتتجلى روعة السورة في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا؛ فبعد صفحات طويلة من الأعدار الكاذبة، يأتي الصدق مؤلماً في أول أمره، منجياً في آخره. كان بإمكان كعب بن مالك رضي الله عنه أن يصنع روايةً تحميه من الألم، لكنه اختار الحقيقة، فضاقت عليه الأرض خمسين ليلة، ثم اتسعت له بتوبة يتلوها المسلمون إلى قيام الساعة.

وهنا تبلغ السورة واحدةً من أجمل حقائقها:

الكذب قد ينقذك من لحظة، والصدق قد يؤلمك فيها؛ لكن الصدق وحده يستطيع أن ينقذك من نفسك.

وأخيراً، لم تكن الغاية من هذه الرحلة استنفاد معاني سورة التوبة؛ فهذا ما لا يدعيه متدبر لكتاب الله. القرآن أوسع من قارئه، وكلما عاد الإنسان إليه عاد بوعي جديد، فرأى من الأنوار ما لم يكن يراه من قبل.

هذه إذن صحبةٌ مع السورة، لا ادعاء إحاطة بها.

صحبة بدأت عند: (بَرَاءَةٌ).

ومرت بـ: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا).

ووقفت طويلاً أمام: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا).

وبكت مع: (وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ).

واهتزت أمام: (أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ).

ثم انتهت حيث ينبغي لكل رحلة إيمانية أن تنتهي: من ازدحام الأسباب إلى صفاء التوحيد، ومن ثقل الطريق إلى كفاية الله: (حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).

وبين «براءة» و«حسبي الله» تمتد سورة التوبة كلها: تحرير للإنسان مما لا ينبغي أن يملكه، حتى يصبح قلبه لله وحده.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

حين يُمتحن صدقُ الإيمان على أرض الواقع

ليست سورة التوبة سورة تُقرأ من وراء زجاج بارد؛ إنها سورة تدخل إلى المناطق التي يختبئ فيها الإنسان من نفسه، وتفتح الأبواب التي أحكم النفاق إغلاقها، ثم تُدخل إليها ضوءًا لا يترك للزيف زاويةً آمنة.

إنها سورة الحقيقة حين تنزع عنها المجاملات، وسورة المجتمع المؤمن حين يُستدعى من سكينه العقيدة إلى تكاليفها، ومن حرارة الشعور إلى مشقة الحركة، ومن حلاوة الانتساب إلى ثمن الانتماء.

ولهذا لم تبدأ بالبسملة.

فالسورة منذ لفظها الأول إعلانٌ بانتهاء مرحلة، وسقوط غطاء، وانكشاف موقف. لقد نُقضت العهود، واستنفدت فرص المراجعة، ولم يعد السلام كلمة تُقال بينما تُشحذ السيوف في الظلام. لم يكن غياب البسملة غيابًا للرحمة؛ فالرحمة حاضرة في السورة حضورًا مدهشًا، حتى سُميت سورة التوبة لكثرة ما فتحت من أبواب الرجوع. ولكنه غيابٌ للطمأنينة الزائفة التي يريد المعتمي وهو يضمر الغدر، وللأمان المجاني الذي يطلبه ناقض العهد بعد أن جعل من العهد جسرًا إلى الخيانة.

إنها سورة تجمع بين الحزم والتوبة؛ لأن الحزم يحمي الحقيقة من العابثين،
والتوبة تحمي الإنسان من ماضيه.

وسنمضي فيها آيةً آيةً، ومقطعاً مقطعاً، حتى نبلغ خاتمتها، فلا يسقط من
بنائها موضع، ولا ننصرف عنها حتى تجمع لنا خيوطها كلها.

الفصل الأول

حين تسقط حصانة الخيانة

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ○) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ).

تبدأ السورة بكلمة واحدة تكاد تقوم مقام وثيقة كاملة: (بَرَاءَةٌ).

لا تمهيد، ولا استدراج بلاغي، ولا مقدمات طويلة؛ لأن المواقف التي استنفدت كل بيان لا تحتاج إلى مزيد من الشرح، بل إلى كلمة فاصلة تعيد الأشياء إلى أسمائها.

والبراءة هنا ليست انفلاتاً من الوفاء، وإنما تحرراً من عهدٍ قتله الطرف الآخر بالخيانة. فالإسلام لا يقدّس الأوراق بعد أن تُفَرَّغَ من معناها، ولا يجعل الوفاء قيداً في عنق الوفي وحده، بينما يتخذ الغادر من المعاهدة ستاراً يستعد خلفه للوثوب.

ومع ذلك لم تأتِ البراءة مباغتةً في ليل، ولم تُتخذ ذريعةً للغدر المقابل. مُنح الناقضون أربعة أشهر يسيحون فيها آمنين، يراجعون أنفسهم، ويعيدون حساباتهم، ويعلمون أن الإنذار جاد.

وهنا تظهر أخلاق القوة في الإسلام: حين يملك القدرة لا يختلس النصر اختلاسًا، ولا يطعن عدوه من خلف وثيقة؛ بل يرفع إليه إعلانًا واضحًا، ويمنحه زمنًا معلومًا، ثم يقيم الحجة قبل أن يقيم عليه أثرها.

(وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ).

كانت أمامهم أربعة أشهر، ولكن لم تكن أمامهم جهة يخرجون فيها من سلطان الله. يستطيع الإنسان أن ينتقل من أرض إلى أرض، وأن يبدل الحلفاء والوجوه والخطط، لكنه لا يستطيع أن ينتقل إلى موضع لا يراه الله فيه.

وكل قوة تتوهم أنها أفلتت لأنها أمهلت، لم تفهم معنى الإمهال. فالإمهال ليس عجزًا، والسكوت ليس غفلة، وتأخر الجزاء لا يعني ضياع القضية. قد يمنح الله الباطل مساحةً يتحرك فيها، لا لأنه خرج من قبضته، ولكن لكي يستوفي ما في نفسه، ويظهر ما أخفاه، ثم يلقي المصير الذي صنعه بيديه.

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

لم يكن هذا الإعلان سرًا دبلوماسيًا يدور بين الخاصة، بل أذانًا يُرفع في أكبر اجتماع للعرب. فالعهود العامة لا تُنقض في الغرف المغلقة، والقضايا التي تتصل بأمن المجتمع لا تُترك للظنون والإشاعات.

(وَأَذَانُ): بلاغٌ يبلغ الأسماع، ويقطع الأعذار، ويمنع كل طرف من أن يقول: لم أعلم.

ومع أن الآية تحمل إعلان البراءة، فإن باب التوبة يُفتح في قلبها: (فَإِنْ تُبْتَغُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ).

ما أعجب هذا القرآن! يعلن نهاية العهد، لكنه لا يعلن نهاية الإنسان. يتبرأ من الشرك والغدر، لكنه لا يغلق الطريق أمام المشرك والغادر إذا رجع نفسه وعاد إلى الحق.

إن الله لا يريد أن يهلك عباده، ولكنه يريد أن يطهرهم من أسباب الهلاك. ولذلك لا تأتي التوبة في القرآن هامشاً بعد خطاب العقوبة، بل تأتي في قلبه؛ كأن الرحمة تفتح نافذةً في الجدار الذي أقامه العدل.

ولم يقل: فإن تبتم نفعتم الإسلام؛ بل قال: (فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ).

فالله غني عن توبة التائب، والإسلام لا يستمد حقيقته من كثرة المنتسبين إليه. إنما يعود خير التوبة إلى صاحبها؛ لأنها تنقذه من أسوأ سجن: أن يبقى محبوساً في الصورة التي صنعها ماضيه.

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).

وبينما تمتلئ الأجواء بإعلان البراءة، تأتي هذه الآية لتقيم ميزانًا دقيقًا لا تميله حرارة المواجهة.

ليست البراءة من جميع المشركين لمجرد شركهم، وإنما هي متعلقة بمن نقضوا العهد أو أعانوا على نقضه. أما الذين حفظوا عهدهم، ولم ينقصوا المسلمين شيئاً من شروطه، ولم يساندوا عدوًّا عليهم، فإن الوفاء لهم واجب حتى تنتهي مدتهم.

هكذا يمنع القرآن الغضب من أن يتحول إلى عى، ويمنع الحرب من أن تبتلع العدل. فلا يؤخذ البريء بذنب الخائن، ولا تُمحي الفروق بين المواقف تحت ضغط الانفعال، ولا يجوز أن يتحول الخصم العقدي إلى متهم سياسي بلا بيّنة.

ثم يجعل الوفاء بالعهود من التقوى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).

التقوى ليست رجة في المحراب وحده؛ إنها أيضاً أن تضبط سيفك حين تقدر، وأن تحفظ عهدك لمن يختلف معك، وألا تجعل كراهيتك لعقيدته مبرراً لخيانة كلمتك معه.

وفي هذا درسٌ بالغ العمق: أخلاق المسلم لا تُمنح للآخرين مكافأةً على حسنهم، بل تصدر عن عبوديته لله. هو يفي لأن الله أمره بالوفاء، لا لأن الطرف

الآخر يشبهه أو يحبه. ولذلك يبقى خُلُقُه ثابتًا حين تتغير الوجوه، ويبقى عدله قائمًا حين تسقط المصالح.

الفصل الثاني

القوة التي تحرس حرية الاختيار

(فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا فَاتَّبُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

هذه آية من أكثر آيات القرآن تعرضاً للاقتطاع من سياقها. تُنتزع من بين العهود والإنذارات، ويُحذف قبلها وبعدها، ثم تُعرض كأنها أمرٌ مفتوح بقتل كل مشرك في كل زمان ومكان.

غير أن السياق لا يترك المعنى سائباً: الخطاب في شأن المشركين الناقضين للعهود، الذين دخلوا في حالة حرب، ومُنحوا مهلةً معلومة، ثم أُصروا على عدوانهم. وليس في الآية ترخيصٌ بالاعتداء على كل مخالف، بدليل أن الآية السابقة أوجبت الوفاء لمن وفى، والآية التالية ستوجب الأمان لمن طلب أن يسمع كلام الله.

(فَإِذَا انسَلَخَ).

لفظة تصور الزمن كأنه ثوبٌ ينسلخ عن الجسد؛ فإذا انقضت المهلة لم تعد الخيانة محميةً بعهدٍ نقضه أصحابها. وحين تبدأ الحرب بعد البيان والإنذار، فلا

تكون حركة المؤمنين رخوةً مترددة؛ لأن التردد في مواجهة العدوان لا يحفظ السلام، بل يمنح المعتدي وقتًا إضافيًا لإحكام قبضته.

ومع ذلك يبقى القتال وسيلةً لرفع العدوان، لا شهوةً لإراقة الدم. فما إن تظهر علامات الانتقال الحقيقي إلى جماعة الإسلام والتزام نظامها، حتى يأتي الأمر: **(فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ).**

لا تفتيش في السرائر، ولا انتقام من الماضي، ولا إذلال بعد الرجوع. إن التوبة الصادقة تقطع الطريق على الثأر، لأن الإسلام لا يريد أجسادًا مهزومة، بل يريد نفوسًا عادت إلى الحق باختيارها.

ولهذا خُتِمت آية القتال باسمين من أسماء الرحمة: **(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).**

ليس في ذلك تناقض؛ فالقوة التي تردع المعتدي رحمةً بالمستضعفين، وفتح باب التوبة رحمةً بالمعتدي نفسه. إن الرحمة ليست أن يُترك الظالم ليكمل ظلمه، بل أن يُمنع من الظلم، ثم يُفتح له باب العودة إلى إنسانيته.

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ).

بعد آية السيف مباشرة تأتي آية الأمان؛ حتى لا يخطئ أحدٌ طبيعة هذه القوة.

رجلٌ من المعسكر المحارب يطلب الجوار، لا ليعلن إسلامه ابتداءً، بل ليسمع كلام الله. فيؤمر النبي ﷺ أن يمنحه الأمان، وأن يتيح له فرصة السماع، ثم إن لم يؤمن فلا يُقتل، ولا يُحتجز، ولا يُكره، بل يُبلِّغ مأمَنه.

(ثُمَّ أَبْلَغُهُ مَأْمَنَهُ).

لا يكفي أن تقول له: خرجت من جواري فاذهب وحدك؛ بل عليك أن تحرسه حتى يصل إلى الموضع الذي يأمن فيه على نفسه. إنها ذمة مؤقتة، لكنها كاملة. وحماية الإنسان هنا لا تتوقف على النتيجة التي خرج بها من مجلس القرآن؛ فقد يسمع ولا يؤمن، ومع ذلك يبقى دمه مصوناً حتى يبلغ مأمَنه.

وهنا تتجلى الثقة العميقة بالحقيقة: القرآن لا يحتاج إلى سيفٍ يفرضه على قلب مرتجف، بل يحتاج إلى أذنٍ تسمع وعقلٍ يتحرر من الضجيج. وما يُنتزع بالإكراه ليس إيماناً، لأن الإيمان ليس حركة لسان، بل انفتاح باطنٍ على الحق. ثم يلتبس لهم القرآن موضعاً من العذر: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ).

لم يقل: لأنهم قوم لا يستحقون، بل لأنهم لا يعلمون. والجهل لا يُداوى بالسيف قبل البيان، وإنما يُعرض عليه كلام الله في فضاء آمن. فالمعرفة تسبق المحاسبة، والحجة تسبق المؤاخذه، والقرآن لا يريد أن يغلب خصمه قبل أن يمنحه فرصة أن يفهمه.

إنها آية ترسم أخلاق الدعوة في قلب المعركة: افتح للباحت باباً، وأمن للخائف طريقاً، ودعه يسمع كلام الله دون أن يسمع إلى جانبه صليل التهديد. فإذا اختار بعد ذلك طريقه، فأوصله آمناً إلى حيث أراد.

وما أعظم الفرق بين قوة تحرس حرية الإنسان حتى وهو يرفضها، وقوة لا ترى في الإنسان إلا مساحةً جديدةً لسلطانها.

هكذا تبدأ سورة التوبة: براءة من الخيانة، ووفاء لمن وفى، وحزم مع المعتدي، وأمانٌ لطالب الحقيقة. ومنذ مطلعها يتضح أن السورة ليست سورة عنفٍ منفلت، بل سورة فرزٍ أخلاقي؛ تفصل بين المحارب والمستجير، وبين ناقض العهد وحافظه، وبين من أغلق قلبه ومن جاء يبحث عن نافذة إلى النور.

لكن هذا الفرز لن يبقى خارج الجماعة المسلمة طويلاً؛ فبعد أن تفرغ السورة من كشف خيانة الأعداء، ستتجه إلى داخل الصف، حيث توجد خيانةٌ أشد خفاءً: ألسنةٌ تقول ما لا تسكنه القلوب، وأجسادٌ تحضر حين تكون الغنيمة قريبة، وتتناقل حين يصبح الطريق طويلاً.

وهناك ستبدأ السورة عملها الأعظم: تحرير الإيمان من ادعاءاته.

الفصل الثالث

العهد حين يكون مرآة للتقوى

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).

تعود السورة إلى الحديث عن العهد، لا لأن المعنى قد تكرر، بل لأن القرآن يريد أن ينتزع القضية من ساحة الانفعال، ويضعها في ميزان المبدأ.

لقد خان فريق من المشركين، لكن خيانتهم لا تمنح المسلمين رخصة أخلاقية للخيانة. فالمؤمن لا يستمد سلوكه من سلوك خصمه؛ لأن مرجعيته أعلى من ردود الأفعال. وإذا كان الآخر قد هدم قيمته، فلا يجوز لك أن تهدم قيمتك وأنت تلاحقه.

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ).

يا لها من قاعدة تُغني عن صفحات من التفصيل! ما داموا ثابتين على عهدهم فاثبتوا عليه، وما داموا يحفظون حقوقكم فاحفظوا حقوقهم. والاستقامة هنا مقابلة للاستقامة، لا في العقيدة، بل في المعاملة؛ إذ يمكن أن تختلف مع الإنسان في أعمق ما يعتقد، ثم تكون مستقيماً معه في العقد والذمة والحق.

وتأمل دقة التعبير: لم يقل فأحسنوا إليهم، لأن الإحسان قد يكون فضلاً زائداً، وإنما قال: (فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ).

فالوفاء ليس تكرماً، بل واجبٌ لا يكتمل به إيمان المرء فحسب، وإنما تظهر به استقامته.

ثم يُعاد ربط الوفاء بالتقوى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).

كأن السورة تقول: لا تختبر تقواك في صلاتك وحدها، بل اختبرها في طريقة تعاملك مع من يخالفك. قد يسهل أن تكون منصفاً مع الصديق، ولكن التقوى الخالصة تظهر حين تقف أمام خصمٍ تملك أن تظلمه، ثم يحجزك الله عنه.

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ).

ثم تعرض السورة الوجه الآخر: قومٌ لا تحفظهم قيم، وإنما تحفظهم موازين القوة. إذا كانوا ضعفاء لانت ألسنتهم، وإذا تمكنوا ظهرت قسوتهم، فلا يراعون قرابةً ولا عهداً ولا حرمة.

(يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ).

هناك كلمات لا تخرج من القلب، بل تُصنع عند طرف اللسان صناعةً مؤقتة. تُقال لكي تمر اللحظة، أو تُخدَّر اليقظة، أو يُشترى بها وقتٌ تستكمل فيه الخيانة استعدادها.

اللسان عند هؤلاء سفيرٌ مزوّر لا يمثل الدولة التي أرسلته. يوقع على السلام، بينما القلب يخطط للحرب. يسكب العسل في السمع، ويخبئ السم في الإرادة. ولذلك لا يكفي القرآن بتحليل ما يقولون، بل ينفذ إلى ما وراء أقوالهم : (وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ).

فالخلل ليس زلةً في العبارة، بل موقفٌ مستقر في الداخل. والفم يستطيع أن يؤدي دورًا لا تؤمن به النفس، لكن ساعة القدرة تفضح ما استتر خلف الأداء. ومن أشد أمراض المجتمعات أن تصبح البلاغة بديلاً عن الأخلاق؛ فيحسن الإنسان الاعتذار ولا يحسن التراجع، ويجيد الوعد ولا يطبق الوفاء، ويصنع من اللغة ستارًا يحجب به خواء الضمير.

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

ليست كل صفقة رابحةً لمجرد أن صاحبها قبض ثمنها. فقد يقبض الإنسان شيئاً من الدنيا، لكنه لا ينتبه إلى الشيء العظيم الذي دفعه في المقابل.

هؤلاء اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ أي جعلوا الآيات ثمنًا مدفوعًا، وأخذوا مكانها مكسبًا عاجلاً: رياسةً، أو مالًا، أو عصبيةً، أو بقاءً في موضع النفوذ. وما كان الثمن قليلًا في ذاته فحسب، بل هو قليلٌ لأن الذي بُذل في مقابله هو الحق.

وكل الدنيا قليلةٌ إذا كان ثمنها أن يفقد الإنسان صلته بالله.

ثم لم يقف فساد الصفقة عندهم: (فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ).

فالذي يبيع الحق لا يطيق أن يرى غيره متمسكًا به؛ لأن استقامة الآخرين تذكّره بانحرافه. لذلك ينتقل من ترك الطريق إلى قطع الطريق، ومن خسارة نفسه إلى صناعة الخسارة لغيره.

إن الضال الهادئ قد يستبقي في قلبه احتمال الرجوع، أما الذي يحول ضلاله إلى مشروع، ويصنع له خطابًا ومصالحًا وأتباعًا، فقد أقام حول نفسه أسوارًا من الباطل، وصار رجوعه أصعب؛ لأنه لم يعد مطالبًا بأن يتخلى عن خطئه وحده، بل عن البناء الذي شيّده فوق ذلك الخطأ.

(لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ).

تكرر السورة أنهم لا يراعون في المؤمن قرابةً ولا عهدًا، لكن التكرار هنا يكشف دافعًا آخر: إنهم يفعلون ذلك به لأنه مؤمن.

لقد تحول الاختلاف عندهم إلى مبرر لإهدار الحقوق. فلم يعودوا يرون أمامهم إنساناً له حرمة، بل هويةً مكروهةً تبيح لهم ما لا يبيحونه مع غيره.

وهنا يبدأ الاعتداء الحقيقي: حين يمحو الإنسانُ إنسانيةَ خصمه قبل أن يؤذيه. فهو يحتاج أولاً إلى أن يقنع نفسه بأن خصمه لا يستحق ما يستحقه الآخرون، ثم يسهل بعد ذلك أن يسلبه حقه وماله وأمنه.

أما القرآن فيسمي الأمر باسمه: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ).

لا تغيّر الأسماء حقيقة الفعل. قد يسمّي المعتدي عدوانه دفاعاً، وخيانتته دهاءً، وظلمه ضرورةً، لكن ميزان الله لا يتأثر بالقواميس التي يؤلفها الأقوياء لتبرئة أنفسهم.

الفصل الرابع

التوبة التي تعيد كتابة الماضي

(فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).

بعد هذا التاريخ من العداء والغدر والصد عن سبيل الله، كان يمكن للنفس البشرية أن تتوقع منزلةً دون الأخوة: قبولاً مشوباً بالحذر، أو عفواً يبقي صاحبه في هامش الجماعة، أو إسلاماً لا يمحو آثار الأُمس.

لكن القرآن يفاجئنا: (فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ).

ليست التوبة رخصة إقامة في المجتمع المؤمن، بل ميلاد أخوة كاملة. فإذا تابوا وأظهروا دخولهم العملي في جماعة الإسلام بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلا يجوز أن يُحبسوا داخل ملفاتهم القديمة، ولا أن يظل الماضي اسماً ثانياً لهم.

الإسلام لا يقبل أن يتحول تاريخ الإنسان إلى سجن مؤبد إذا فتح الله له باب الخروج. ومن أعظم القسوة أن يغفر الله للعبد، ثم يصير الناس على ألا يغفروا له؛ وأن يطهره الصدق، ثم يظل المجتمع يعرّفه بخطيئته.

(فَاخُذُوا نُكْمًا).

كانوا قبل قليل محاربين لا يرقبون عهدًا، فإذا صدقت توبتهم صار لهم ما للمؤمنين، وعليهم ما عليهم. تسقط المسافات القديمة؛ لأن رابطة العقيدة أقوى من ذاكرة الخصومة.

وهذا من أعظم سلطان التوبة: إنها لا تصلح صفحةً تالفةً فحسب، بل تفتح كتابًا جديدًا.

(وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُنْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ).

أما إذا نكثوا أيمانهم بعد العهد، وأضافوا إلى الخيانة طعنًا ومحاربةً للدين، فالمواجهة تتجه إلى قادة العدوان: (فَقَاتِلُوا أُنْمَةً الْكُفْرِ).

فالقرآن يقرأ بنية الصراع، ولا يكفي بملاحقة أطرافه المتناثرة. وراء كثير من الفتن رؤوسٌ تدبر، ومراكز تصنع الكراهية، وقيادات تحوّل الجهل العام إلى قوة موجهة.

وحين تُترك مصانع العدوان تعمل، لا يكفي معالجة نتائجها واحدةً بعد أخرى؛ لأن النار ستظل تقذف بشررها ما دام موقدها قائمًا.

ومع ذلك فالغاية ليست إبادةً ولا تشفيًا: (لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ).

إنه قتالٌ غايته إنهاء العدوان، لا إنهاء الوجود. ولذلك ما إن ينتهي الاعتداء حتى تنتفي الغاية التي شرع القتال من أجلها.

حتى في أشد مواضع الحزم لا يسمح القرآن للكراهية أن تستقل بالقرار. القوة مربوطة بهدف أخلاقي: أن ينتهي الظلم، وتُصان حرية الدين، ولا تصبح الخيانة طريقةً رابحة.

(أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّعُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

تضع الآية ملف القضية كاملاً أمام المترددين: نكثوا الأيمان، وهموا بإخراج الرسول ﷺ، وبدؤوا العدوان.

لم تكن المواجهة نزوة توسع، ولا رغبةً في صناعة عدو؛ بل جاءت بعد سلسلة من الخيانات، وبعد أن بدأ الطرف الآخر الحرب مراراً. ومع هذا كله بقي في بعض النفوس ترددٌ تصنعه مهابة الخصم.

(أَتَخْشَوْنَهُمْ).

ليس الخوف عيباً فطرياً؛ فالإنسان يخاف. ولكن الخطر أن يتحول الخوف إلى مرجعية، فيعيد ترتيب الواجبات، ويجعل الإنسان يرى الحق بعين القوة لا بعين الحقيقة.

وقد لا يقول المرء: أنا خائف، بل يصنع لخوفه أسماءً أكثر وقاراً؛ يسميه حكمةً، أو تريئناً، أو قراءةً للواقع. غير أن الله يعلم اللحظة التي تكون فيها الحكمة عقلاً، واللحظة التي تصبح فيها قناعاً يرتديه الجبن.

(فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ).

خشية الله لا تلغي تقدير المخاطر، لكنها تمنع المخاطر من أن تتحول إلى آلهة تصدر الأوامر. حين يمتلئ القلب بعظمة الله تعود الأشياء إلى أحجامها؛ لا يختفي العدو، لكنه يكف عن احتلال القلب.

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

كان المؤمنون قد حملوا جراحاً طويلة: أخرجوا من ديارهم، وأخذت أموالهم، وعُذِبَ ضعفاؤهم، وطورد نبيهم ﷺ، وتراكم في الصدور ألمٌ لم تصنعه الأوهام.

لذلك يعترف القرآن بهذا الألم، ولا يطالب المظلوم أن يتظاهر بأنه لا يشعر. ثمة غيظٌ في القلوب، وثمة صدور تحتاج إلى شفاء.

لكن الشفاء هنا لا يأتي من فوضى الثأر، بل من عدلٍ منضبط يوقف المعتدي، ويعيد للحق مكانه. فالانتقام الشخصي يضاعف الجراح، أما إنفاذ العدل فيمنع الجرح من أن يبقى شاهداً على انتصار الظالم.

(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبِ غَيظَ قُلُوبِهِمْ).

الشفاء أعمق من ذهاب الغيظ. قد يهدأ الغضب، ويبقى الجرح في القاع. لذلك ذكر الله شفاء الصدور ثم إزالة ما بقي من حرارة الألم؛ حتى لا تتحول ذاكرة الظلم إلى مادةٍ تعيد إنتاج الظلم.

ثم، في قلب مشهد المواجهة، يفتح القرآن بابًا غير متوقع: (وَيُثَوِّبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ).

من هؤلاء المحاربين أنفسهم من سيصبح غداً أخاً في الدين، وربما حاملاً لرايته. ولذلك لا يملك المؤمن أن يحكم على مستقبل إنسانٍ من موقفه الحاضر. نحن نقاوم عدوانه اليوم، لكننا لا نزعم أن الهداية لن تطرق قلبه غداً.

الخصم في التصور القرآني ليس كتلةً مغلقةً من الشر، بل إنسانٌ قد تتغير وجهته إذا مسته الهداية. وهذا ما يمنع الصراع من أن يتحول إلى كراهيةٍ عمياء تستهدف جوهر الإنسان.

الفصل الخامس

حين تسقط دعوى الإيمان أمام كلفة الطريق

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

هنا تنعطف السورة من مواجهة الخارج إلى اختبار الداخل.

فليس السؤال الأكبر: ماذا فعل الأعداء؟ بل: ماذا صنع المؤمنون حين فعل الأعداء ما فعلوا؟

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا).

هل ظننتم أن يكفي أن تقولوا: آمنا، ثم تبقى الكلمة بلا امتحان؟ إن الإيمان الذي لا يمر على الحياة قد يظل تصوراً جميلاً عن النفس، لا حقيقةً مستقرةً فيها.

والابتلاء لا يضيف إلى علم الله شيئاً لم يكن يعلمه، تعالى الله؛ لكنه يُظهر المعلوم في عالم الشهادة، ويكشف للإنسان حقيقة نفسه، ويقوم الحجة بالفعل بعد أن كانت مستورةً في النيات.

قد يظن المرء أنه شجاع لأنه لم يرَ خطرًا، وصادق لأنه لم يتعرض لإغراء، ومخلص لأنه لم تتزاحم على قلبه الولاءات. فإذا حضرت لحظة الاختبار خرج المخبوء إلى السطح.

وتخص الآية بالذكر أمرًا بالغ الدقة: (وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً).

الوليعة هي البطانة والدخيلة التي تنفذ إلى الداخل. فخطر الاختراق لا يبدأ دائمًا بجيش يعبر الحدود، بل قد يبدأ بعلاقة خفية تعبر إلى موضع القرار، أو ولاء باطن يقدم مصلحة الخصم، أو سر يُودع عند من يتربص بالجماعة.

إن الإيمان ليس عبادةً فرديةً معزولة عن شبكة الولاءات. قد يكثر الإنسان من القول الحسن، لكن حقيقة موقعه تظهر في الجهة التي يودع عندها سره، ويطلب منها عزته، ويربط بها مستقبله.

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

خبيرٌ بما وراء العمل أيضًا: بالدافع المستتر، والخيط الخفي، والباب الصغير الذي ظن صاحبه أن أحدًا لن يراه. فالله لا ينظر إلى واجهة الموقف وحدها، بل يعلم هندسته الداخلية كلها.

وهكذا تنتهي المرحلة الأولى من السورة إلى سؤالٍ ثقيل:

هل الإيمان كلمة نلوذ بها، أم عهدٌ نتحمل كلفته؟

فالطريق إلى الله لا يفتش عن ادعاءاتنا، بل يضعها في النار ليعرف الناسُ
أيها ذهب، وأيها كان يلمع فحسب.

الفصل السادس

حين لا تعوّض العمارةُ خرابَ القلب

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ).

قد يرفع الإنسان جدارًا للعبادة، لكنه لا يكون بذلك عابدًا. وقد يخدم المكان المقدس، بينما يظل قلبه بعيدًا عن رب المكان.

كان المشركون يفاخرون بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وكأن القيام ببعض شعائر البيت يمنحهم حصانةً من مساءلة العقيدة. فجاء القرآن يفصل بين خدمة المبنى والإيمان بصاحب البيت.

فالعمارة في ميزان الوحي ليست حجارةً تُرَصّ، ولا سقوفًا تُزَيَّن، ولا أبوابًا تُطلى؛ إنها أولاً قلبٌ يعرف لمن بُني المسجد، وجبهةٌ تسجد له وحده، وحياةٌ تنتقاد لأمره.

ولا يعني ذلك أن أعمال الخير الدنيوية لا أثر لها في حياة الناس، ولكنها لا تقوم مقام أصل الإيمان، ولا تشتري للإنسان نجاهً أخرويةً وهو يهدم بالتوحيد من الداخل ما بينيه بيده من الخارج.

(شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ).

لم تكن الشهادة عبارةً تقال فحسب؛ بل حالًا ظاهرةً، وشعائر شرك تُمارَس في جوف البيت الذي أقامه إبراهيم عليه السلام للتوحيد. كانوا يخدمون الكعبة بأيديهم، ويخاصمون رسالتها بقلوبهم.

وهنا تبدو المفارقة موجعة: قد يقف الإنسان قريبًا جدًا من الرمز، لكنه بعيدٌ عن معناه. وقد يلامس جدار المقدس، ولا يدخل المقدس إلى قلبه.

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ).

تنتقل الآية من العمارة المرئية إلى العمارة الحقيقية.

فالمسجد لا يعمر بكثرة الداخلين إليه فقط، بل بما يدخل معهم من إيمان. قد يمتلئ المكان بالأجساد، ويبقى خاليًا من الخشوع، وقد يكون البناء متواضعًا، لكن قلبًا صادقًا يرفعه عند الله فوق أبنيةٍ ازدحمت فيها الزخارف وغاب عنها الإخلاص.

تبدأ صفات العُمَّار بالإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن من عرف المبدأ والمصير عرف موضعه بينهما. ثم تأتي الصلاة، لتصل العبد بربه، والزكاة، لتصل المؤمن بالناس. فعمارة المسجد لا تنفصل عن عمارة المجتمع؛ والذي يطيل

الوقوف بين يدي الله ثم يقبض يده عن حق الفقير، لم يفهم بعدُ ما تصنعه الصلاة في الإنسان.

ثم تأتي الصفة التي تحفظ ذلك كله: (وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ).

ليس المعنى أن المؤمن لا يجد خوفًا طبيعيًا من خطر، وإنما ألا تتحول خشية المخلوق إلى سلطة تنازع أمر الله. فقد يخاف المؤمن، ولكنه لا يبيع موقفه لخوفه، ولا يجعل رضا الناس قبلةً ثانيةً لقلبه.

ثم يختم الله بقوله: (فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ).

ومع اجتماع الإيمان والصلاة والزكاة وخشية الله، لا تأتي العبارة مزكيةً لهم تزكيةً قاطعة، بل تترك القلب معلقًا بالرجاء. وهذا من أدب القرآن في تربية المؤمن: يعمل ولا يغتر، ويرجو ولا يدّعي، ويسير إلى الله بقلب لا يرى لنفسه حقًا على الهداية، بل يراها منّة تستوجب دوام الافتقار.

الفصل السابع

حين يُوزن العمل بالمعنى الذي يحمله

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

سقاية الحاج شرف، وعمارة المسجد الحرام شرف، لكن الأعمال لا تُوزن
بأسمائها وحدها، بل بالأصل الذي تصدر عنه والغاية التي تتجه إليها.

قد يتحول العمل الجليل إلى ساترٍ يختبئ خلفه فسادٌ أكبر، وقد يجعل الإنسان
من خدمة المقدسات وسيلةً لامتلاك مكانةٍ تعفيه — في ظنه — من الخضوع
لحقيقة المقدس.

وهذا مرضٌ يتكرر في صور شتى: أن يتخذ المرء فضيلةً واحدةً درعًا يحمي
بها بقية انحرافاتهِ؛ فيذكرُ الناسَ بعطائه كلما سئل عن ظلمه، وبخدمته العامة
كلما كُشف فساده، وبماضيه الحسن كلما طُلب بحق الحاضر.

لكن الحسنات ليست رشاًوى تُقدّم للميزان كي يتغاضى عن أصل مختل.

(لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ).

قد يستوون عند الناس لأن الناس يرون المشهد ولا يرون منبعه، ويحصلون
الإنجاز ولا ينفذون إلى النية. أما عند الله فتختلف المقاييس؛ فالعمل الصغير

يعظم بالإيمان، والعمل الكبير يفرغ من معناه إذا صار خادماً للشرك والرياء والصد عن سبيل الله.

إن قيمة الفعل لا تُقاس بضجيجه في الأرض، بل بصلته بالحق في السماء.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) ٥٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ٥١ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).

الإيمان هنا ليس فكرة ساكنة؛ لقد تحرك فصار هجرةً وجهاداً وبذلاً. غادر أصحابه المألوف، وتركوا ما استقروا فيه، ودفعوا من المال والنفس؛ لأن الحقيقة إذا استقرت في القلب طالبت الحياة أن يعاد ترتيبها على أساسها.

(أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ).

لم يقل: أعظم شهرةً بين الناس؛ فقد يرحل بعضهم من الدنيا ولا يعرف الناس مقدار ما بذل. لكن ثمة مكاناً لا تضيع فيه التضحيات المجهولة، ولا يُقدَّم فيه صاحب الصوت على صاحب الصدق.

ثم تنزل البشارة في ثلاث عطايا: (بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ).

الرحمة أولاً؛ لأنها الأصل الذي يدخلون به النجاة، فما من عمل مهما عظم يستقل بثمن فضل الله. ثم الرضوان، وهو أرفع من مجرد النعيم؛ إذ ماذا تصنع الجنة لقلب لم يطمئن إلى رضا ربه؟ ثم الجنات بما فيها من نعيم مقيم.

في الدنيا كانت هجرتهم انتقالاً من موضع إلى موضع، وكان أمنهم مؤقتاً، ومنازلهم معرضةً للفقد. أما هناك: (نَعِيمٌ مُّقِيمٌ).

لا يهجرون بعده وطناً، ولا يودعون حبيباً، ولا يضعون متاعهم في منزل وهم يعرفون أن الرحيل قادم. لقد انتهى زمن الانتقال، وبلغوا دار الإقامة.

الفصل الثامن

اختبار المحبة حين تتعارض الجهات

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

لا يحارب الإسلام الفطرة، ولا يطالب القلب أن يتجرد من حبه لأبيه أو أخيه. لكنه يمنع القرابة من أن تصبح سلطةً تعلو على العقيدة، أو بوابةً يتسرب منها الولاء المحارب لجماعة المؤمنين.

وتأمل قوله : (إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ).

إنه اختيارهم هم؛ آثروا الكفر وأصروا عليه، ولم يكن مجرد ضعف عابر أو شبهة تحتاج إلى بيان. فإذا انضاف إلى ذلك موقفٌ يضعهم في جهةٍ تناصر الباطل على الحق، لم يعد الأمر حبًّا عائليًّا طبيعيًّا، بل ولاءٌ يعيد ترتيب الانتماء.

فالقرابة تُحفظ بالبر والإحسان، لكن لا تُمنح حق قيادة الضمير.

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

إنه يظلم الحقيقة حين يجعل رابطة الدم أقدس من رابطة الإيمان، ويظلم نفسه حين يسلم زمامها لمن يبعدها عن الله، ويظلم جماعته حين يجعل أسرارها ومصيرها تحت رحمة عاطفةٍ لا تنضبط بالحق.

ليس المطلوب قتل العاطفة، بل منعها من أن تستولي على موضع العقيدة. فالإسلام لا يصنع قلباً حجرياً، وإنما يصنع قلباً يعرف كيف يحب، ويعرف أيضاً أن الله في داخله المقام الأعلى.

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ).

هذه الآية لا تضع أمام الإنسان شهواتٍ قبيحة، بل تجمع أحب الأشياء وأشدّها التصاقاً بالفطرة:

آباء، وأبناء، وإخوة، وأزواج، وعشيرة، وأموال، وتجارة، ومسكن.

إنها خريطة القلب البشري كلها: الأشخاص الذين نحبهم، والمال الذي تعبنا في جمعه، والمستقبل الذي نخشى اضطرابه، والبيت الذي تستريح إليه أرواحنا.

والقرآن لا يأمرنا أن نكره هذه الأشياء؛ فقد سمّاها محبوبات ضمناً، ولم ينكر أصل الميل إليها. إنما السؤال: أيها يحتل المقام الأعلى؟ وماذا يحدث حين تتعارض هذه المحابّ مع أمر الله؟

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا).

في اللفظة إحياء بالكسب الذي شاركت فيه الجوارح، فليست أموالاً عابرة، بل ثمرة سنوات من السعي. ولذلك يتعلق الإنسان بها؛ لأنه لا يرى فيها نقوداً فقط، بل يرى أجزاءً من عمره تحولت إلى ملك.

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا).

يلتقط القرآن ذلك القلق الاقتصادي الدقيق الذي قد يعيد تشكيل المواقف. كم من إنسان عرف الحق، لكن أمامه سوق يخشى أن يخسره! وكم من موقف سُمي اجتهداً، بينما كانت التجارة الصامته هي التي تكتب القرار!

(وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا).

لم يقل مساكن تسكنونها، بل ترضونها؛ لأن البيت ليس جدراناً فحسب، بل طمأنينةً وذكریات وشعورٌ بالاستقرار. وقد تكون الدعوة إلى الله أحياناً نداءً بالخروج من هذا الدفء إلى طريق لا تُعرف تضاريسه.

ثم يجمع القرآن الكفة الأخرى: **(مَنْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي سَبِيلِهِ).**

ليست القضية أن تزعم محبة الله في عالم المشاعر، بل أن تظهر هذه المحبة عند موضع الكلفة. فالمحبة التي لا تغيّر اختياراً، ولا تدفع تضحيةً، ولا تقدّم

أمر المحبوب عند التعارض، قد تكون دعوى رقيقة العبارة، لكنها لم تبلغ بعد مقام القيادة.

(فَتَرَبَّصُوا).

عبارة تهز القلب؛ لأن الأمر لا يحتمل تسوية لغوية تخفي اختلال الميزان. إذا صار الله ورسوله ودينه في مرتبة أدنى من المال والأهل والمسكن، فقد أصيب مركز الحياة نفسه.

وليس المطلوب أن يترك الإنسان أسرته وماله دون سبب، بل أن يضعها في موضعها الصحيح: نعم تُحب في طاعة المنعم، لا آلهة صغيرة يُعصى الله من أجل بقائها.

إن التوحيد لا يبدأ بتحطيم الأصنام الحجرية وحدها، بل بتحرير القلب من كل محبوب يطلب أن يجلس في المقام الذي لا يليق إلا بالله.

الفصل التاسع

حُنَيْن: حين ضاقت الأرض بكثرة العدد

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ).

بعد اختبار المحبة يأتي اختبار القوة.

كان المسلمون في مواطن كثيرة أقل عدداً، فكان افتقارهم ظاهراً، وقلوبهم معلقة بالله. أما يوم حنين فقد نظر بعضهم إلى كثرتهم، وقالوا في أنفسهم: لن نُغلب اليوم من قلة.

كانت العبارة تبدو وصفاً للواقع، لكن شيئاً دقيقاً انزلق إلى القلب: انتقال الثقة من واهب القوة إلى صورة القوة.

(إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ).

لم تكن الكثرة خطيئة؛ فالإسلام يريد القوة ويعدها. لكن الخلل أن تتحول الوسيلة من نعمة تُشكر إلى سندٍ يستقل عن الله. فالأسباب مطلوبة باليد، أما القلب فلا يستند إلا إلى مسببها.

(فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا).

لم يقل: أغنت عنكم قليلاً؛ بل سقط أثرها في اللحظة الأولى سقوطاً كاملاً. فاجأهم كمين هوازن، واضطربت الصفوف، وتحولت الكثرة التي أعجبتهم إلى زحام يعوق الحركة.

وهكذا قد تصبح النعمة نفسها موضع ضعف حين ينفصل ظاهرها عن افتقار القلب. المال الذي تظنه أمناً قد يصير مصدر قلقك، والعدد الذي تراه قوة قد يتحول إلى عبء، والمعرفة التي تعجبك قد تحجبك عن رؤية جهلك.

(وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ).

الأرض هي الأرض، وسعتها لم تتغير، لكن النفس حين يحيط بها الخوف تنكمش بها المسافات. فالضيق ليس دائماً في المكان؛ قد يكون في القلب، ثم يسقط القلب ضيقه على العالم كله.

إنها لحظة تربوية خاطفة: أراد الله أن يطهر النصر القادم من وهم القوة الذاتية. فقبل أن يمنحهم الغلبة، كسر في داخلهم الصنم الذي كاد يُنصب باسم الكثرة.

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ).

بعد أن ضاقت الأرض نزلت السكينة.

ولم يقل: أخرج السكينة من نفوسهم، بل: (أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ).

فهي عطاء يأتي من فوق حين تعجز النفس عن إنتاج الطمأنينة من داخل اضطرابها. ليست السكينة غياب الخطر، بل حضور الله في القلب حضور إيمانٍ ويقين؛ فيبقى الخطر قائماً، لكنه يفقد قدرته على تفكيك الروح.

وبدأ بالرسول ﷺ؛ فقد ثبت في موضعه، ثم عاد المؤمنون واجتمعوا حوله. وكان ثبات القيادة الصادقة يعيد إلى الجماعة ذاكرتها حين يبدها الفرع.

(وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا).

نحن نحسب ما نراه، والله يدبر بما نرى وما لا نرى. ولذلك تخطئ حسابات البشر حين تظن أن المشهد ينتهي عند حدود المحسوس. ففي ملك الله أسباب لا تدخل جداولنا، وقوى لا تلتقطها عيوننا، وتحولات قد تبدأ في قلب المعركة دون أن يسمع أحدٌ وقع أقدامها.

(ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

مرة أخرى، تأتي التوبة بعد القتال.

السورة التي يظن بعض الناس أنها لا تتحدث إلا بلغة المفاصلة، تظل تفتح في كل جدار بابًا للرجوع. فالغاية ليست أن يُدفع الإنسان إلى حافة الهلاك، بل أن يعود قبل أن يبلغها.

(مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ).

بعد العداوة، وبعد القتال، وبعد الهزيمة، ما يزال الباب مفتوحًا. لا يوجد ماضٍ يعجز الله عن محوه إذا صدق صاحبه، ولا قلبٌ نملك أن نحكم عليه بالإغلاق الأبدي.

وهكذا تنتهي حنين لا بذكر الغنائم، بل بذكر التوبة؛ لأن أعظم انتصار ليس أن تسقط راية العدو، وإنما أن يسقط العناد من قلبه، فيتحول من محاربٍ للحق إلى سائرٍ في نوره.

الفصل العاشر

حين يُطَهَّر البيت من سلطان الوثنية

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

بعد أن طهر الله مكة من سلطان الشرك، جاء الأمر بتطهير المسجد الحرام من شعائره. فالبيت الذي أقامه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على التوحيد، طال عليه الزمن حتى ازدحمت حوله الأصنام، وصار المشركون يطوفون به وهم ينسبون العبادة إلى غير ربه.

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ).

النجاسة هنا نجاسة الشرك والاعتقاد، لا مسوغ فيها لإهدار كرامة الإنسان أو ظلمه؛ فقد أمرت الآيات قبل قليل بإجارة المشرك وإبلاغه مأمنه، وأمرت بالوفاء لمن وفى منهم. لكن الشرك في ميزان التوحيد تلوَّثٌ للفطرة؛ لأنه يهب حق الله الخالص لغيره، ويملأ القلب بآلهة متفرقة، ثم يترك الإنسان موزعاً بينها.

وقد اقترن قرار المنع بخوف اقتصادي حقيقي. كانت مواسم الحج الجاهلي مصدرًا للتجارة، وكانت مكة تعتمد على ما يأتي به الوافدون. فإذا مُنع المشركون من دخول الحرم، خشي الناس أن تنكمش الأسواق وتقل الموارد.

وهنا يلمس القرآن واحدًا من أكثر مواضع النفس حساسية: قد يقتنع الإنسان بصواب المبدأ، ثم يتراجع أمام فاتورة تطبيقه.

فكم من باطل بقي لأن إزالته مكلفة! وكم من إصلاح أُجِّلَ لأن الناس حسبوا خسائر الساعة، ولم يحسبوا مكاسب التحرر الطويلة! وكم من مجتمع ربط رزقه بمنظومة فاسدة، حتى خُيِّلَ إليه أن زوال الفساد يعني زوال الحياة!

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً).

لم يُنكر القرآن خوفهم من الفقر، بل سمّاه وواجهه. ثم نقل أبصارهم من أبواب الرزق المألوفة إلى خزائن الرازق: (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ).

لم يقل: إن الرزق مربوط بهذا الموسم أو بتلك القوافل. فالأسباب أبواب، لكنها ليست خزائن. قد يغلق الله بابًا ألفه الناس، ثم يفتح من فضله أبوابًا لم تخطر لهم ببال.

وتأتي عبارة (إِنْ شَاءَ) لتبقي القلب مؤدبًا مع الله؛ فلا تتحول الثقة بوعده إلى مطالبةٍ بطريقة محددة من العطاء. هو يغني بحكمته، في الوقت الذي يشاء، وبالصورة التي يعلم أنها أصلح.

إن التوحيد الاقتصادي هو أن تعمل بالأسباب كلها، ولكنك لا تعتقد أن رزقك يسكن داخل سببٍ منها.

الفصل الحادي عشر

حين تنحرف العقيدة فينحرف ميزان الإنسان

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ).

تنتقل السورة إلى طورٍ آخر من تنظيم العلاقة مع القوى التي كانت تواجه الدولة المسلمة وتهدد وجودها. وليس هذا أمرًا فرديًا يباشره الأحاد، بل تشريعٌ يتعلق بسلطان الدولة والحرب والسلام وعلاقات الجماعات السياسية.

وتصف الآية حقيقة الصراع من جهة المرجعية: قومٌ لم يؤمنوا بالله الإيمان الذي جاء به الوحي الخاتم، ولا باليوم الآخر على وجهه الحق، ولم يلتزموا ما حرّم الله ورسوله، ولم يخضعوا لدين الحق.

ثم تحدد نهاية القتال بإعطاء الجزية، وهي التزامٌ مالي في النظام السياسي التاريخي للدولة المسلمة مقابل دخولهم في ذمتها وحمايتها، مع بقائهم على دينهم. ولو كان المقصود إكراههم على الإسلام، لما انتهى القتال ببقائهم على معتقداتهم وأدائهم الجزية.

فالمعركة لم تكن اقتحامًا للضمانر؛ إذ الضمير لا يفتح السيف، وإنما كانت إخضاعًا لسلطان سياسي معادٍ حتى لا يبقى قادرًا على محاربة الدعوة ومنع الناس منها.

وقوله : (وَهُمْ صَاغِرُونَ)

لا ينبغي أن يُحوّل إلى رخصةٍ لإهانة الناس والعبث بكرامتهم؛ فشريعة الإسلام أمرت بالعدل والإحسان وصيانة دماء أهل الذمة وأموالهم. إنما هو الصَّغار السياسي أمام حكم الدولة بعد زوال الاستعلاء المحارب، وقبول سلطان النظام الذي كانوا ينازعونه.

فالقرآن لا يؤسس لعذابٍ يومي للإنسان بسبب مخالفته، وإنما ينهي حالة قوّة كانت تريد أن تعلو على الحق وتحاصره.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِنُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ).

يكشف القرآن أصل الانحراف العقدي: أن يُرفع عبدٌ من عباد الله فوق مقام العبودية، ويُنسب إلى الله ما لا يليق بجلاله ووحدانيته.

وقد قالت طائفة من اليهود في زمن التنزيل هذه المقالة في عزيز، كما غلت النصارى في المسيح عليه السلام حتى نقلوه من مقام النبوة والعبودية الكريمة إلى دعوى البنوة.

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ).

كأن العبارة لم تمر بموازين الوحي والعقل والفطرة، وإنما خرجت من الأفواه بلا برهان. والقول مهما تتابعت عليه القرون لا يتحول إلى حقيقة إذا خلا من الدليل. قد يرث الإنسان العبارة حتى يشعر أنها جزء من بدايته، لكنها تبقى في ميزان الحق كلمةً تحتاج إلى حجة.

(يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ).

فالضلال كثيرًا ما يعيد إنتاج نفسه بأسماء جديدة. تتغير الشخصيات واللغات، لكن الفكرة واحدة: رفع المخلوق إلى مقام لا يليق إلا بالخالق، والبحث عن وسائل تمنح البشر شيئًا من خصائص الربوبية.

(أَنِّي يُؤْفَكُونَ).

إلى أي جهة يُصرفون عن الحقيقة الواضحة؟ كيف يغادر العقل توحيد الله إلى هذه المتاهة، مع أن كل رسول جاء ليعيد الإنسان إلى العبودية الخالصة؟ إن العقيدة حين تتحرف لا يبقى انحرافها فكرةً معلقةً في الذهن؛ بل تعيد تشكيل السلطة والقيم والعبادة. فإذا اختلف تصور الإنسان عن الله، اختلف تبعًا لذلك تصوره عن نفسه والعالم.

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ).

لم يكن اتخاذ الأحيار والرهبان أرباباً يعني بالضرورة أنهم سجدوا لهم؛ بل أطاعوهم في تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحل، ومنحوهم حقاً لا يملكه بشر: أن يبدّلوا شريعة الله ثم تُتلقَى تبديلاتهم بالخضوع الديني.

وهنا يوسّع القرآن مفهوم العبادة. فالعبادة ليست سجود الجبهة فقط، بل قد تكون تسليم حق التشريع المطلق لغير الله. وحين يقبل الإنسان أن يصبح قول البشر فوق قول الوحي، فقد منحهم من حق الله بقدر ما سلّم لهم.

وهذا لا يلغي مكانة العلماء، ولا حقهم في البيان والاجتهاد؛ بل يحفظ رسالتهم الحقيقية. فالعالم دليلٌ إلى النص، لا حجابٌ دونه؛ ومبينٌ لحكم الله، لا منشئٌ لدينٍ من عند نفسه. يُحترم بعلمه، لكنه لا يُعصم، ويُتبع بدليله، لا لأن شخصه صار مصدرًا مستقلاً للحق.

وكم تنتسل هذه الآفة إلى المجتمعات حين يتحول العالم أو الزعيم أو الجماعة إلى ميزانٍ يُعرف به الوحي، بدل أن يكون الوحي هو الميزان الذي يُعرف به صواب الجميع وخطوهم.

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا).

إنها الرسالة التي لم تتغير: إلهٌ واحد، فلا تتوزع العبودية بين محرابِ الله وطاعةٍ مطلقةٍ للبشر. وكلما تكاثرت الأرباب المعنوية في حياة الإنسان، تمزق قلبه بينها؛ فهذا يطلب رضاه، وذاك يخشى غضبه، وثالث يملك مستقبله في وهمه.

ثم يأتي التنزيه: (سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ).

تنزه الله عن الشريك والولد والمماثل، فليس كمثله شيء، ولا يشاركه أحدٌ في ربوبيته وألوهيته وحقه الخالص في العبادة.

الفصل الثاني عشر

نورٌ لا تطفئه الأفواه

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

يا للمشهد الذي ترسمه الآية: أفواهٌ في مواجهة نور!

أقصى ما يملكونه قولٌ وشبهةٌ وافتراء، والذي يريدون إطفاءه هو نور الله. والمفارقة تكشف ضعفهم قبل أن يبدأ الصراع؛ فكيف لفمٍ ينفخ أن يطفى نوراً أذن الله له أن يتم؟

إنهم لا يملكون أن يصنعوا حقيقةً بديلة، ولذلك يحاولون تغطية الحقيقة بالدعاية، وتشويه حاملها، وإغراق الأسماع بالضجيج حتى لا يصل إليها صوت الوحي.

لكن النور لا يخسر طبيعته لأن أناساً أغمضوا أعينهم. إنهم لا يطفئونه حين يرفضونه، وإنما يحرمون أنفسهم منه.

(وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ).

قد يمر النور بمراحل يبدو فيها محاصراً، وقد تُطارد كلمته ويُؤذى حملته، ولكن ذلك كله يقع داخل الوعد، لا خارجه. فالإتمام ليس معناه ألا توجد مقاومة، بل ألا تملك المقاومة إيقاف إرادة الله.

وهذه الآية لا تمنح المؤمن رخصة الكسل؛ فالذين حملوا هذا النور بذلوا وهاجروا وجاهدوا. لكنها تحرره من اليأس: أنت مأمور أن تكون نافذةً للنور، لا أن تحمل همّ الشمس كلها.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ).

أرسل الله رسوله ﷺ بشيين متكاملين : (بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ).

الهدى هو النور الذي يكشف الطريق للعقل والقلب، ودين الحق هو المنهج الذي تنتظم به الحياة. فلا يكفي أن يعرف الإنسان الوجهة دون نظام يسير به، ولا أن يحمل نظاماً بلا بصيرة تمنحه الروح والمعنى.

إن هذا الدين ليس مشاعر روحية تنسحب من الواقع، ولا أحكاماً جافة تنفصل عن تزكية القلب؛ إنه هدى يضيء الداخل، وحق يقيم الخارج.

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ).

إظهارُ بالحجة والبيان، وبالقوة حين تُحاصر الدعوة وتُمنع من البلاغ، وبالشهادة الحضارية حين يتحول الدين في حياة أهله إلى عدلٍ ورحمةٍ وكرامةٍ.

غير أن أخطر ما يحجب ظهور الحق ليس دائماً قوة خصومه، بل سوء تمثيل المنتسبين إليه. فقد يكون الدين ظاهراً في نصوصه، محجوباً في سلوك أهله؛ كاملاً في ميزانه، مشوهاً في تطبيق من يرفعون اسمه.

ولذلك لا تبدأ نصره الدين من هزيمة الخارج وحده، بل من أن ينتصر الدين داخلنا أولاً: على أهوائنا، وتعصبنا، وظلمنا، وحبنا للعلو باسمه.

الفصل الثالث عشر

حين تتحول القداسة إلى تجارة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

قال: (كثيرًا)، ولم يقل جميعًا. فالقرآن عادلٌ حتى وهو يكشف الانحراف؛ لا يعمم التهمة، ولا يمحو الصالحين بخطيئة الفاسدين.

لكن الخطر يصبح أشد حين يرتدي الطمع ثوب الدين. فالسارق العادي يأخذ مالك، أما المتاجر بالمقدس فيأخذ مالك وضميرك معًا، ويقنعك أن استغلاله قربة، وأن خضوعك له طريق إلى الله.

(يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ).

عبّر بالأكل لأن المال يتحول إلى جزء من جسد الأكل، وكأن حقوق الناس تدخل في تكوين حياته. يعيش في رخائه من تعبهم، ويبني جاهه من حاجتهم، ثم يجعل من موقعه الديني سياجًا يحول دون مساءلته.

ولا يقف الأمر عند أكل المال: (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

فحين يرى الناس الدين ممثلاً في جشع المتصدرين باسمه، قد ينصرفون عن الطريق نفسه. وهكذا لا يكتفي الفاسد الديني بخيانة الأمانة، بل يجعل جسده واقفاً بين الخلق وربهم، فيظن الجاهل أن قبح الممثل من حقيقة الرسالة.

إن أخطر فسادٍ هو الذي يسرق اسم الفضيلة ليحصن به الرذيلة.

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)  يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ).

ليس الوعيد لمجرد امتلاك الذهب والفضة، وإنما لمن حبس حق الله فيها، ومنع الزكاة، وحول المال من وسيلةٍ للإعمار إلى صنمٍ مكتنز لا يصل نفعه إلى أحد.

المال الذي لا يؤدي حقه يتوقف عن الجريان في شرايين المجتمع. يجتمع في موضع واحد، بينما تجف حوله حيوات كثيرة. والكنز ليس حفظاً للأوراق والمعادن فحسب؛ إنه انحباس الرحمة في القلب قبل انحباس المال في الخزائن.

(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

تأتي البشارة في موضع التهديد تهكماً مريراً؛ لأنهم عاشوا ينتظرون من المال بشائر الأمن والرفاه، فإذا الذي جمعوه ليحميهم يتحول إلى بشارةٍ بالعذاب.

ثم يرسم القرآن المشهد: يُحمى على الذهب والفضة في نار جهنم، ثم تُكوى بها الجباه والجنوب والظهور.

الجباه التي علت بالبخل والكبرياء، والجنوب التي تنعمت ومنعت، والظهور التي أعرضت عن المحتاجين.

(هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ).

ظنوا أنهم يكنزون لأنفسهم، فإذا بهم يكنزون عليها. كانوا يضيفون كل قطعة إلى خزائن الأمان، ولم يعلموا أنهم يضيفونها إلى أدوات الحساب.

ما أبلغ انقلاب المعنى: المال هو المال، لكن اليد التي تعاملت معه هي التي حددت مصيره. لو خرج منه حق الله لصعد رحمةً ونجاة، فلما احتبس عن مستحقه عاد نارًا على صاحبه.

إن الإسلام لا يخاصم الغنى، ولكنه يخاصم أن يستعبد الغنى صاحبه، وأن يتحول المال من شيء في اليد إلى سيد داخل القلب.

فالمال لا يفسد الإنسان بكثرتة، وإنما يفسده حين يمنحه تعريفه لنفسه، ويقنعه أن ما عنده أبقي مما عند الله. وعندئذ لا يعود الإنسان مالكًا لخزائنه؛ بل تصبح الخزائن هي التي تملكه، تحرسها روحه في الدنيا، ثم تحملها جراحًا في الآخرة.

الفصل الرابع عشر

الزمن حين يعود إلى ميزان الله

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

بعد الحديث عن فساد المال تنتقل السورة إلى فساد الزمن؛ لأن الإنسان حين ينفصل عن هداية الله لا يعبت بالأشياء وحدها، بل يعيد تشكيل الموازين لتخدم هواه. يحرف وظيفة المال، ويعبت بحرمة الزمان، ثم يمنح تلاعبه أسماء توهم النظام.

إن عدة الشهور اثنا عشر شهراً، لا باتفاق البشر وحدهم، بل : (فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ).

فالزمن ليس فراغاً محايداً اخترعه الإنسان لتسجيل حركته، بل جزء من نظام الخلق. إننا لا نملك الوقت امتلاكاً مطلقاً؛ نحن نعبره، ونختبر فيه، ثم نغادره، بينما يبقى ما أودعناه في لحظاته مكتوباً علينا أو لنا.

ومن هذه الشهور أربعة حرم، جعل الله لها حرمة خاصة، لتهدأ فيها نوازع القتال، ويجد الناس مساحات آمنة، ويتمكن الحجاج والمسافرون من السير دون خوف.

(فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ).

كل معصية هي ظلم للنفس قبل أن تكون خروجًا عن الأمر؛ لأن الله لا تزيده طاعة، ولا تنقصه معصية، وإنما يعود أثر الفعل إلى صاحبه. يظن العاصي أنه يقطع لنفسه لحظة متعة، وهو في الحقيقة يقطع من سلامها ونورها.

وتعظم حرمة الظلم في الأزمنة التي عظمها الله، وإن كان الظلم محرماً في كل حين. فالزمن المقدس لا يجعل الله أقرب بعلمه — فهو سبحانه عليم بعباده في كل وقت — لكنه يجعل القلب أكثر مطالبةً باليقظة، ويقيم في مسيرة العام محطاتٍ يستعيد فيها الإنسان حساسية الضمير.

ثم يأتي الأمر بمواجهة المشركين كافة كما يقاتلون المسلمين كافة؛ أي إن اجتماع قوى العدوان لا يُقَابَل بتفرق أهل الحق. وحين تتحد مشاريع الباطل على اختلاف مصالحها، يصبح تنازع المؤمنين فيما بينهم ثغرةً لا تقل خطراً عن قوة عدوهم.

ومع ذلك لا تختم الآية بالقوة والعدد، بل تقول: (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

فليست معية النصر مرتبطةً بمجرد الانتساب، ولا بالشعارات المرفوعة، بل بالتقوى. قد يزعم الناس أنهم يقاتلون للحق، لكنهم إذا ظلموا وغدروا وتجاوزوا حدود الله فقد هدموا في داخلهم شرط المعية التي يرجونها.

إن الله لا ينصر رايةً لأنها كتبت اسمه، وإنما ينصر من أقام أمره تحتها.

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ).

كان أهل الجاهلية إذا ثقل عليهم تحريم القتال في شهرٍ حرام، نقلوا حرمة إلى شهر آخر. يحافظون على العدد في الظاهر، ويهدمون المعنى في الحقيقة.

وهذه حيلة النفس حين تريد المعصية دون أن تفقد صورتها المتدنية: لا تلغي الحكم صراحةً، بل تعيد ترتيب الأسماء حتى تصل إلى النتيجة التي تريدها. تُبقي الهيكل، وتفرغه من روحه؛ وتحافظ على الأرقام، ثم تعبت بما تدل عليه.

(لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ).

كانوا يقولون: ما زالت لدينا أربعة أشهر حرم. نعم، بقي العدد، لكن الشهر الذي حرّمه الله أحل، والشهر الذي لم يحرمه جعل مكانه. لقد وافقوا الحساب وخالفوا الأمر.

وهذا شكلٌ بالغ الخفاء من التحريف: أن تبدو وفاقًا للنص بعد أن تفصله عن مقصده، وأن تصنع تطابقًا شكليًا يخفي انقلابًا حقيقيًا.

(زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ).

وهذه أخطر مراحل السقوط؛ فالإنسان ما دام يرى خطيئته خطيئةً يبقى بينه وبين التوبة خيط. أما إذا زُيِّنَتْ له، وصار يمنحها براهين الفضيلة، فقد فقد البوصلة التي تعيده.

المعصية التي تُرتكب مع الندم جرح، أما المعصية التي تُرتكب مع الإعجاب فقد تصبح منهجاً.

الفصل الخامس عشر

الاستنفار الذي كشف أثقال القلوب

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ).

هنا تبدأ أجواء غزوة تبوك.

كان الوقت عسيرًا: حر شديد، ومسافة بعيدة، وعدو مهيب، وموسم ثمار تتطلع إليه النفوس بعد طول انتظار. لم تكن الدعوة إلى رحلة تنسجم مع رغبات الجسد، بل جاءت في اللحظة التي تعلق فيها الأيدي بظلال النخيل.

(مَا لَكُمْ).

سؤال لا يستفهم عن حركة الأقدام وحدها، بل عن شيء أصاب القلوب. ما الذي حدث لكم؟ أين ذلك الإيمان الذي أعلنتموه؟ كيف تحولت الدعوة التي كنتم تنتظرونها إلى حملٍ تريدون التخلص منه؟

(اتَّقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ).

اللفظة نفسها ثقيلة في نطقها؛ كأن حروفها تجر أقدامًا علقت بالتراب. لم يقل: قعدتم، بل صوّر انجذابًا إلى الأرض، كأن الجاذبية لم تعد تشد الأجساد وحدها، بل أمسكت بالأرواح.

والأرض هنا ليست مذمومةً في ذاتها؛ فهي موطن العمل وموضع الاستخلاف. لكن المذموم أن تصبح سقف التطلع، وأن ينسى الإنسان أنه عابرٌ فوقها، فيتشبث بالمؤقت كأنه المقيم.

قد يظن المرء أنه يملك أشياء الدنيا، ثم تأتي لحظة التكليف لتكشف أن الأشياء هي التي تملكه. البيت الذي يسكنه قد يسكن قلبه، والمال الذي يحمله قد يحمل إرادته، والراحة التي يستعملها قد تستعمله.

(أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ).

ليست المشكلة أن تحب الحياة؛ فالحياة نعمة. وإنما أن ترضى بها بدلاً من الآخرة، وأن تقبل القليل عوضاً عن الكثير، والزائل عوضاً عن الباقي، والظل عوضاً عن الحقيقة.

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ).

الدنيا قد تبدو كثيرةً حين تُرى وحدها، لكنها تصغر حين توضع إلى جوار الأبد. والعين التي لا ترى إلا العاجل تخطئ تقدير الأحجام؛ فتكبر لحظة اللذة، وتصغر أبداً كاملاً.

إن القرآن لا يلغي متاع الدنيا، بل يعيد وضعه في نسبته الصحيحة. المشكلة ليست في أن نستمتع بالقليل، وإنما في أن نبيع الكثير من أجله.

(إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

من أخطر أوهام الجماعات المؤمنة أن تتصور أن الدعوة متوقفة عليها، وأن تقصيرها سيعطل قدر الله. فيأتي القرآن ليحرر الدعوة من غرور حاملها: **(وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ).**

أنتم تتشرفون بحمل الرسالة، ولا تمنون عليها بحركتكم. وإذا تركتم مواضعكم فلن يبقى الحق يتيماً، بل يخلق الله له أكتافاً أخرى وقلوباً أصدق.

الاستبدال لا يقع دائماً بانهيار الجماعة دفعةً واحدة؛ قد يبدأ حين تفقد فاعليتها، وتبقى أسماؤها بعد أن ينتقل أثر الرسالة إلى غيرها. تبقى المؤسسات قائمة، والخطب عالية، والتاريخ حاضراً، لكن روح التكليف تكون قد غادرت المكان.

(وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا).

لا يضر المتناقل الله، وإنما يضر نفسه. الله غني، ودينه محفوظ، وقدره نافذ. أما الإنسان فهو الذي يفقد مقام الاصطفاء حين يظن أنه يحفظه بمجرد الاسم.

إن الرسالة لا تتوسل إلى أحد كي يحملها. من أقبل رفعت، ومن أعرض تجاوزته، ثم مضت إلى غايتها.

الفصل السادس عشر

صاحب الغار: حين كان الله ثالث المعنى

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيَّةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

إذا ظن المؤمنون أن نصره الرسول ﷺ متوقفة على استجابتهم، فليعودوا إلى مشهد الغار.

لم يكن معه جيش، ولا مدينة، ولا دولة. كان رجلين في غار، وخلفهما مكة بما تملك من رجال وسلاح ومطاردة. وبمقاييس الأرض كان المشهد في أقصى درجات الضعف؛ لكن ميزان الحقيقة كان يرى شيئاً آخر : (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا).

قالها النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه، لا إنكاراً للخطر، بل وضعاً للخطر داخل الحقيقة الأكبر. المطاردون قرييون، نعم؛ لكن الله أقرب بعلمه ونصره وتأييده. والقلق له أسبابه، لكن للسكينة رباً ينزلها حين تعجز الأسباب عن حمل القلب.

(لَا تَحْزَنْ).

لم يقل: لا تخف؛ لأن قلب الصديق لم يكن متعلقًا بنفسه فحسب، بل كان مشفقًا على رسول الله ﷺ وعلى مصير الدعوة. وهذا الحزن النبيل لا يُلام من حيث أصله، لكنه يحتاج إلى أن يُرفع إلى أفق المعية.

إن أجمل ما في الصحبة أن تجد إلى جانبك من يعيدك إلى الله حين تضيق رؤيتك، لا من يضاعف هلعك، وأن تكون الكلمة التي تسمعها في الغار ليست وصفًا محمومًا للخطر، بل تذكيرًا بمن يملك الخطر كله.

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ).

السكينة لا تحتاج إلى اتساع المكان؛ فقد تنزل في غار ضيق، بينما يفترقها صاحب القصر الواسع. لأن الطمأنينة ليست بنت الجدران، وإنما ثمرة الصلة بالله.

(وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا).

مرة أخرى يظهر الغيب شريكًا في صناعة التاريخ. نحن نقرأ الحوادث من سطحها: طريقًا، وغارًا، ومطاردين. لكن وراء السطح تدبيرًا لا تراه العيون، وهو الذي يمسك المشهد من أعماقه.

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى).

كانت كلمتهم عاليةً في ضجيج مكة، لكنها في ميزان الله سفلى؛ لأنها تحمل أسباب سقوطها في داخلها. أما كلمة الله فلم يقل إنه جعلها عليا، بل قال: (وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا).

إنها عليا في ذاتها، لا تستمد علوها من اعتراف الناس بها، ولا تفقده حين يحاصرها الباطل. قد يعلو صوت الخصم، لكن الصوت غير الكلمة؛ وقد يملك المنبر، لكن المنبر غير الحقيقة.

لقد خرج الرسول ﷺ من مكة مطارداً، ثم عاد إليها فاتحاً. وبين الخروج والعودة ظل وعد الله يعمل في صمت، كما تعمل البذرة تحت التراب قبل أن ترى الأرض اخضرارها.

الفصل السابع عشر

خَفَافًا وَثِقَالًا: حين لا ينتظر الواجب اكتمال الظروف

(انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

(خَفَافًا وَثِقَالًا).

في النشاط والمشقة، في اليسر والعسر، شبابًا وشيوخًا، ذوي قلة وذوي سعة؛ كلٌّ بحسب وسعه وموقعه. فالمعنى الجامع ألا يتحول اختلاف الأحوال إلى صناعة دائمة للأعذار.

إن الذي ينتظر ظرفًا كاملاً ليؤدي واجبه قد ينتظر العمر كله. لا توجد حياة تخلو من ثقل: هذا يثقله المال، وذاك يثقله الأهل، وثالث يثقله المرض، ورابع تثقله عاداته. والسؤال ليس: هل تحمل ثقلًا؟ بل: هل يتحول الثقل إلى قيد يمنعك، أم تحمله وأنت تمضي؟

ثم قدم الجهاد بالأموال على الأنفس؛ لأن المال أول ما تتعلق به النفوس، ولأن تجهيز الطريق يحتاج إلى من يبذل ولو لم يستطع الخروج بنفسه. ففي مشروع الحق تتكامل المواقع: من يسير، ومن يجهز، ومن يحمي، ومن يخلف الخارجين بخير.

(نَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ).

التكليف يبدو من الخارج أخذًا من الراحة والمال، لكنه في حقيقته خيرٌ للإنسان. فالله لا يستكثر بجهادنا، وإنما يحررنا به من ضيق الذات، ويرفعنا من حياة الاستهلاك إلى مقام الرسالة.

كم من راحةٍ أفسدت صاحبها، وكم من مشقةٍ أعادت خلقه!

الفصل الثامن عشر

الطريق البعيد يكشف صدق القريب

(لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

لو كانت الغنيمة قريبة، والطريق سهلاً، والنتيجة مضمونةً في حساب البشر، لتكاثر المتبعون. لكن تبوك لم تكن كذلك؛ فبعدت المسافة، واشتد الحر، وعظمت الكلفة، فتساقط من الطريق من لم يكن في قلبه من الإيمان ما يكفي لحمل جسده.

(لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا).

هؤلاء ليسوا عازفين عن الحركة مطلقاً؛ إنهم مستعدون لها حين تلتقي الدعوة مع المصلحة. مشكلتهم ليست في الكسل وحده، بل في أنهم جعلوا المنفعة الشخصية شرطاً لطاعة الله.

إنهم يسيرون خلف الحق ما دام الطريق يقود إلى مكسب قريب، فإذا انعطف نحو التضحية توقفوا، ثم قالوا: لم نكن نستطيع.

(وَسِيخِلْفُونَ بِاللَّهِ).

يستعملون اسم الله لتغطية هروبهم من أمر الله. وهذه من أبشع المفارقات: أن تتحول اليمين التي يُفترض أن تعظم الحقيقة إلى أداة لستر الكذب.

(لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ).

لم تنقصهم القدرة الجسدية، بل نقصتهم الإرادة الإيمانية. لكن الإنسان يفضل أن يتهم استطاعته على أن يعترف بفساد رغبته؛ لأن العجز يُعذر، أما التناقل فيفضح الاختيار.

(يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ).

كانوا يظنون أنهم نجوا من حر الطريق ومشقة السفر، ولم يعلموا أنهم يحملون أنفسهم إلى هلاك أشد. فالنجاة ليست دائماً أن تتفادى الألم العاجل؛ قد يكون الألم الذي هربت منه هو الطريق الذي كان سينقذك.

إن الطريق البعيد لا يصنع النفاق، لكنه يكشفه. والمشقة لا تخلق ضعف القلب، بل تزيج الغطاء عنه. ففي الأيام السهلة تتشابه الوجوه، فإذا ارتفعت الكلفة تكلمت الخطوات، وسكتت الدعاوى.

الفصل التاسع عشر

العفو الذي سبق العتاب

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ).

يبدأ العتاب بالعفو : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ).

يا لهذا اللطف الرباني مع نبيه ﷺ! لم يترك قلبه ينتظر نهاية العتاب ليعرف منزلته، بل قدّم إليه الأمان قبل البيان. وكأن الرحمة تقول له: إن ما يأتي بعد ذلك تعليمٌ ورفعٌ للمقام، لا مؤاخذهٌ تُباعدك.

كان المنافقون قد استأذنوا في التخلف، فأذن لهم النبي ﷺ بما عُرف عنه من سماحة ورحمة. لكن الحكمة كانت تقتضي ألا يُعجل بالإذن؛ حتى تنكشف المواقف، ويظهر الصادق من الكاذب.

فالفتنة هنا لم تكن لتخبر الله بما يجهله، تعالى الله عن ذلك، وإنما لتُظهر للناس ما استقر في النفوس، فيقوم التعامل على حقيقة ظاهرة لا على ادعاءاتٍ متشابهة.

وهذا درسٌ في القيادة: قد يكون التسامح خلقًا كريمًا، لكنه إذا جاء قبل استكمال التبيين حجب حقائق يحتاجها القرار. ليست الرحمة أن تُلغى الفروق بين الصادق

والمتلاعب، ولا أن تُمنح الأعداء قبل اختبارها؛ فاللين إذا لم تصحبه بصيرة قد يتحول إلى ستار يحمي خلفه المخادعون.

(لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ○ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ).

المؤمن الصادق لا يبحث عن منفذٍ يخرج منه من الواجب، بل عن بابٍ يدخل
منه إليه. لا يأتي ليسأل: كيف أعفى؟ وإنما يسأل: أين موضعي؟

أما المنافق فيبدأ من النتيجة التي يريدتها — القعود — ثم يبحث لها عن
حجة. لا تقوده الأدلة إلى الموقف، بل يقوده الموقف المسبق إلى انتقاء ما يشبه
الدليل.

(وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ).

جعل موضع الريبة القلب؛ لأن الشك حين يبقى سؤالاً صادقاً قد يكون بداية
معرفة، أما حين يستقر في القلب متصلاً بالهوى فإنه يتحول إلى عجزٍ عن
الحسم.

(فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ).

صَوَّرَ الرِّيبَ كَأَنَّهُ فُضَاءٌ مَغْلَقٌ يَتَرَدَّدُونَ دَاخِلَهُ؛ يَذْهَبُونَ إِلَى طَرَفٍ ثُمَّ يَعُودُونَ، فَلَا هُمْ خَرَجُوا إِلَى وَضُوحِ الْإِيمَانِ، وَلَا هُمْ امْتَلَكُوا شَجَاعَةَ إِعْلَانِ مَا يَبْطِنُونَ.

وَالْتَرَدَّدَ الطَّوِيلُ لَيْسَ حَيَادًا. فِيهِ اللَّحْظَاتُ الَّتِي تَسْتَدْعِي مَوْقِفًا، يَصْبِحُ عَدَمُ الْإِخْتِيَارِ اخْتِيَارًا لِمَصْلَحَةِ الطَّرَفِ الْأَقْوَى. وَمَنْ يُؤْجَلُ نَصْرُهُ الْحَقُّ حَتَّى تَزُولَ الْمَخَاطِرُ قَدْ يَصِلُ بَعْدَ أَنْ يَنْتَهِيَ الْإِمْتِحَانُ، فَلَا يَبْقَى لِمَجِيئِهِ مَعْنَى.

الفصل العشرون

الاستعداد الذي فضح غياب الإرادة

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ).

الإرادة الصادقة تترك آثارها قبل موعد العمل.

(لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً).

من يريد الخروج يتهيأ: يرتب شؤونه، ويجمع زاده، ويواجه عوائقه. أما الذي يبقى إلى آخر لحظة بلا استعداد، ثم يقول إن الظروف منعت، فكثيراً ما تكون الظروف اسماً مهذباً لغياب الإرادة.

فالنيات ليست مشاعر دفيئة لا شاهد عليها؛ لها أقدام تمشي نحو غايتها، وأيدٍ تهیی أسبابها. ومن زعم أنه يريد ثم لم يتحرك في اتجاه مراده، فعليه أن يراجع حقيقة ما يقول.

(وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ).

لما خبثت نياتهم ولم يريدوا الخروج طاعةً لله، لم يوفّقوا إلى شرف الصحبة. وليس كل منع خسارة لمن منع وحده؛ قد يكون حمايةً للصف من عنصرٍ يحمل في داخله أسباب الاضطراب.

(وَقِيلَ افْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ).

كان القعود هو ما طلبته نفوسهم، فلما صار جزاءً أحاط بهم عاره. وكم من شهوة يلح الإنسان عليها، فإذا ترك إليها اكتشف أنها العقوبة نفسها!

أخطر العقوبات ليست دائماً أن يُحال بينك وبين ما تحب، بل أن تُسلم إلى ما تحب بعد أن صار حجاباً بينك وبين الله.

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ).

ليس العدد الكثير قوةً في ذاته. قد ينضم إلى الصف من يزيده اضطراباً، ويحمل إليه الوهن، ويحول كثرة الأجساد إلى قلة في الفاعلية.

(مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا).

فالزيادة الحسابية قد تكون نقصاناً معنوياً. شخصٌ واحد يشيع الشك في ساعة العزم قد يعطل أثر عشرات، وكلمةٌ خبيثة في لحظة حرجة قد تفعل ما لا يفعله جيشٌ واقف خارج الأسوار.

(وَلَا أُضْعَعُوا خِلَالَكُمْ).

صورة لحركة سريعة داخل الصفوف؛ لا يواجهون الجماعة من خارجها، بل يتخللون مسافاتهما، وينقلون الكلام من قلب إلى قلب، ويبحثون عن الشقوق النفسية ليوسعوها.

إن الفتنة لا تنجح بقوة صانعها وحده، بل بحجم الاستعداد لها فيمن يسمعها: (وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ).

لم يقل: مستمعون، بل سماعون؛ يوحي بوفرة التلقي وسرعة التصديق. فكل جماعة لا تبني في أفرادها عقلاً متشبثاً تظل قابلة للاختراق، ولو كانت شعاراتها عالية.

والمنافق لا يصنع دائماً الكذبة كاملة؛ يكفيهِ أن يلقي نصف كلمة في أذنٍ تحب الشائعة، ثم تتكفل النفوس القلقة بإتمامها ونشرها.

(لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ).

لم يكن موقفهم في تبوك حادثةً منفصلة، بل حلقةً في تاريخ من التربص. بحثوا عن الفتنة، وقلبوا الأمور، ونظروا في وجوه الاحتمالات كلها لعلمهم يجدون ثغرةً يسقط منها البناء.

(وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ).

إنه تفكيرٌ لا يبحث عن الحقيقة، بل عن فرصة لإيذائها. يقلب الوقائع لا ليفهمها، وإنما ليعرف أي وجهٍ منها أصلح للتشويه.

لكن بينما كانوا يقلبون الأمور في الظلام، جاء الحق وظهر أمر الله من جهةٍ لم يملكو ردها.

(وَهُمْ كَارِهُونَ).

والحق لا ينتظر محبة خصومه حتى يظهر. قد يكرهونه، وقد يحاولون تعطيله، ولكن كراهيتهم لا تصبح قانونًا في الكون. إرادتهم تعمل، غير أنها تعمل تحت سلطان إرادة الله.

الفصل الحادي والعشرون

«اِذْنُ لِي»: حين تتنكر الفتنة في صورة الورع

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ اِذْنُ لِي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ).

جاء بعضهم يطلب الإذن في القعود، وزعم أنه يخشى الفتنة إذا خرج إلى بلاد الروم. بدا الكلام كأنه اعتراف بالضعف وطلبٌ للسلامة، لكن القرآن نزع عنه قناعه: (أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا).

هربوا من فتنة متوهمة، فسقطوا في فتنة محققة: عصيان الله، وخذلان رسوله، والكذب لتغطية القعود.

وهكذا يفعل الهوى حين يتعلم لغة الفضيلة؛ لا يقول لصاحبه: اعص الله، بل يقول: احفظ نفسك. لا يقول: اهرب من الواجب، بل يقول: تجنب الفتنة. فيبقى الفعل هو الفعل، لكن الشيطان يغير الملائمة المعلقة فوقه.

ليس الورع أن تتفادى اختباراً أو همك هو أنك أنه خطرٌ على دينك، بينما تترك أمراً واضحاً من الله. الورع الصادق لا يعزل النصوص عن مراتبها، ولا يجعل احتمالاً بعيداً ذريعةً لإهدار واجب حاضر.

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ).

ظنوا أنهم بالجلوس خرجوا من دائرة الخطر، ولم يعلموا أنهم انتقلوا إلى إحاطةٍ أشد. قد ينجو الجسد من مشقة الطريق، بينما يسير القلب إلى هاوية لا يراها.

(إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ).

هنا يكشف القرآن العلامة النفسية الفارقة للنفاق: موقفه من أفراح المؤمنين والآلامهم.

إذا أصاب النبي ﷺ والمؤمنين خير، ساء لهم. وإذا وقعت مصيبة، شعروا أنهم انتصروا في تقديرهم، وقالوا: لقد احتطنا لأنفسنا ولم نخرج معهم.

إن القلب لا يستطيع أن يخفي هويته طويلاً؛ ما يفرحه وما يحزنه يفضح جهة ولائه. قد يتكلم الإنسان بلسان الجماعة، لكن انقباضه لانتصارها وارتياحه لهزيمتها يخرجان السر الذي عجزت عباراته عن إخفائه.

(وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ).

لم يكتفوا بالسلامة، بل فرحوا بالمصيبة. وهذه مرحلة يتجاوز فيها الخلاف حدود الرأي إلى فساد الوجدان؛ إذ تصبح آلام الناس مادةً لإثبات صواب الذات.

وكم من إنسان يتمنى في أعماقه فشل مشروع خير، لا لأنه يكره الخير صراحةً، ولكن لأن نجاحه سيكشف خطأ موقفه السابق! فيختار سقوط المصلحة العامة حتى يبقى رأيه واقفاً.

الفصل الثاني والعشرون

من القدر إلى الطمأنينة، لا إلى القعود

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

هذه ليست كلمةً يقولها القاعدون لتبرير ترك الأسباب؛ إنها قيلت في قلب الاستنفار، بعد الأمر بالخروج وإعداد العدة وبذل المال والنفس.

فالإيمان بالقدر في القرآن لا يُخدِّر الحركة، بل يحررها من الرعب. اعمل ما أمرت به، وخذ بالأسباب، ثم لا تسلِّم قلبك للخوف؛ فما يصيبك لن يخرج عن كتابة الله.

(إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا).

لم يقل: ما كتب الله علينا. حتى ما يبدو ألمًا يدخل في دائرة (لَنَا)؛ لأن المؤمن يرى وراء الحادثة تدبير المولى، وأجر الصبر، وتطهير النفس، ومآلاتٍ قد لا يكشفها المشهد العاجل.

وليس معنى ذلك أن كل ألم محبوبٌ لذاته، أو أن المؤمن لا يحزن؛ بل معناه أن المصيبة لا تصبح عبثًا. إنها تقع داخل حكمة الله، وتحت علمه، وفي الطريق إلى غاية لا تحيط بها رؤيتنا القصيرة.

(هُوَ مَوْلَانَا).

هذه هي الكلمة التي تمنح القدر دفأه. لسنا أمام قوة عمياء تدفعنا، بل تحت ولاية رب رحيم عليم حكيم. وما دام هو مولانا، فلا يكون التسليم استسلامًا للعدم، بل اطمئنانًا إلى من يملكنا ويرحمنا.

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).

التوكل اعتماد القلب على الله بعد بذل الوسع، لا إعفاء الجوارح من واجبها. فمن ترك العدة باسم القدر لم يتوكل، بل عارض الأمر. ومن اعتمد على العدة وحدها نسي رب القدر. والمؤمن يجمعهما: سببٌ كامل في اليد، وافتقارٌ كامل في القلب.

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ).

المنافقون ينتظرون عودة المؤمنين بالهزيمة، لكن المؤمن يرى أن طريقه ينتهي إلى إحدى الحسينيين: نصرٍ يفرح به في الدنيا، أو شهادةٍ يلقي بها الله.

وهذه الرؤية تسلب العدو أخطر أسلحته: التهديد بالموت. فمن كانت الآخرة امتدادًا لحياته لا هاويةً في نهايتها، لا يستطيع الخوف أن يساومه بالطريقة نفسها.

لكن «إحدى الحسنيين» لا تعني التهوين من الحياة أو التهافت على الموت؛ فحفظ النفس مقصد، والنصر مطلوب، والإعداد واجب. إنما تعني أن المؤمن إذا أدى ما عليه ثم جاءه قدر الله، لم تتحول خسارته الظاهرة إلى هزيمة وجودية. الهزيمة الكبرى ليست أن يفقد الإنسان حياته وهو ثابتٌ على الحق، بل أن يحتفظ بحياته بعد أن يفقد المعنى الذي تستحق الحياة أن تُعاش من أجله.

الفصل الثالث والعشرون

العمل الذي فقد طريقه إلى القبول

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ).

قد يقع الفعل في صورته كاملةً، ولا يصعد إلى الله.

ينفق المنافق المال، وربما يقف في صف المؤمنين، لكن الجسر بين العمل والقبول مقطوع؛ لأن القلب لا يؤمن بالله ورسوله، ولأن النفقة لم تخرج عبودية بل خوفًا أو رياءً أو اضطرارًا.

(أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا).

ليس أمرًا بالإنفاق، بل بيان لعدم نفعه على الحال التي هم عليها. فالله لا يحتاج إلى أموال تُدفع بينما تدفع القلوب في الاتجاه المضاد.

إن العمل في الإسلام ليس جسدًا بلا روح. صورته الظاهرة مهمة، لكن روحه الإيمان والإخلاص. فإذا ماتت الروح بقيت الحركة، غير أنها لا تحمل صاحبها إلى الله.

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى).

إنهم يأتون الصلاة؛ أي إنهم لم يتركوها ظاهريًا. لكن خطاهم إليها مثقلة، لأنها ليست موعد حب ولا عبودية، بل عبء اجتماعي يحافظون به على صورتهم.

والكسل العارض قد يصيب المؤمن فيجاهده، أما الكسل المذكور هنا فهو ثمرة نفور القلب من الصلاة مع إظهارها للناس. فالمنافق لا يرى في الصلاة لقاءً، بل أداءً مسرحيًا ينتظر لحظة انتهائه.

(وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ).

تخرج القطعة من اليد، ويبقى القلب متعلقًا بها، كأنها انتزعت منه انتزاعًا. والمال يسمع — بمعنى الشهادة عليه — صوت النية التي أخرجته؛ فقد يتشابه العطاء في أعين الناس، بينما يكون أحده قربي والآخر حجةً على صاحبه.

(فَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ).

ليس كل اتساع كرامة، ولا كل كثرة علامة رضا.

قد تتحول النعمة إلى عذاب حين تستولي على القلب. يكثر المال، فيكثر معه الخوف عليه، وتكثر الخصومات من أجله، ويصبح صاحبه حارسًا لا ينام لخزائن لا تمنحه الطمأنينة.

وكذلك الأولاد: هم زينة ورحمة في أصل الفطرة، لكنهم قد يصيرون موضع عذاب إذا انقطعت الصلة بالله، فتتحول المحبة إلى قلقٍ دائم، أو عصبيةٍ للباطل، أو انشغالٍ يبتلع العمر ويترك الآخرة خاوية.

العذاب بالشيء لا يعني دائمًا فقدته؛ قد يكون في امتلاكه امتلاكًا يملك صاحبه. وقد تُعطى للإنسان أمنيته، ثم يكتشف أن قلبه صار مربوطًا بها من كل جهة.

(وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ).

تنتهي الرحلة وهم منشغلون بحراسة ما سيتركونه، فيغادرون الدنيا دون أن يحملوا منها إلا الحساب.

ما أشد فقر الإنسان إذا امتلأت يداه وفرغ قلبه!

الفصل الرابع والعشرون

الخوف الذي صنع انتماءً مزورًا

(وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ  لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً
أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ).

يقولون: نحن منكم.

لكن القرآن يكشف أن هذا الانتماء لم تصنعه العقيدة، بل صنعه الخوف. دخلوا
في الصف طلبًا للحماية، لا حبًا للحقيقة، فإذا وجدوا ملجأً آخر اندفعوا إليه.

(وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ).

الخوف حين ينفصل عن الإيمان لا يكفي بإرباك الإنسان، بل قد يعيد تشكيل
هويته. يجعله يرتدي الانتماء الأكثر أمنًا، وينطق بالكلمة التي تحمي جسده،
بينما يبقى قلبه في موضع آخر.

ثم تصور الآية شدة نفورهم: ملجأ، أو مغارات، أو مدخلًا ضيقًا شاقًا؛ أي
مكان يمكنهم الاختفاء فيه.

(لَوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ).

الجموح اندفاع لا يكاد صاحبه يملك إيقافه. إنهم لا يفكرون في كرامة المكان ولا سעתه؛ يريدون ثقباً يهربون إليه من مسئولية الموقف.

وحين يفرغ القلب من السكينة قد يرى النجاة في أضيق مغارة، بينما يشعر المؤمن بالأمان في غارٍ أحاط به المطاردون؛ لأن الفارق ليس في شكل الغار، بل فيمن يسكن القلب داخله.

الفصل الخامس والعشرون

حين يختبر المالُ عدالةَ النفوس

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ).

وصل النفاق إلى أن يطعن في عدالة رسول الله ﷺ في توزيع الصدقات.

لكن الآية تكشف معيارهم الحقيقي: لم يكن اعتراضهم بحثاً عن العدل؛ فالعدل عندهم هو ما انتهى إلى أيديهم.

(فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا).

يتغير حكمهم على القرار بتغير نصيبهم منه. إذا استفادوا صار القائم عليه حكيمًا منصفًا، وإذا فاتهم العطاء انقلبت الألسنة تفتش عن تهمة.

وهذا هو الهوى حين يلبس ثوب النقد: لا يملك ميزانًا ثابتًا، بل يمدح الفعل الذي يخدمه ويذمه إذا حرمه، ولو كان الفعل واحدًا.

فالمال الذي يشتريه المال ليس رضا عن الحق، والسخط الذي يولده الحرمان ليس دائمًا غيراً على العدل. ولعل من أشق أعمال النفس أن تسأل نفسها بصدق: لو نال غيري ما أطلب به، هل كنت سأظل أراه حقاً؟

(وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ).

تضع الآية في مقابل نفس السخط نفساً أخرى، لا تتوقف طمأنينتها على مقدار ما نالت.

(رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ).

الرضا ليس موت الطموح، ولا ترك السعي، ولا سكوتاً عن حق ثابت؛ إنما هو ألا يتحول فوات حظ من الدنيا إلى اعتراض على حكمة الله، وألا يفسد القلب لأن قسمته جاءت على غير هواه.

(وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ).

ليس معناها: لا نحتاج إلى الأسباب؛ بل إن الله كافينا في القلب، وإن طلبنا رزقه عبر الأسباب. فالمؤمن يطرق الأبواب، لكنه يعلم أن العطاء لا يسكن داخلها، بل يأتيه من الله عبرها أو من غيرها.

(سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ).

إنه رجاء لا يضيق عند اللحظة الراهنة. ما فات اليوم ليس إعلاناً بانتهاء الفضل، واليد التي لم تمتلئ الآن ليست محكومةً بالفراغ إلى الأبد.

ثم يرتفع الرجاء من العطاء إلى المعطي: (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ).

وهذا هو التحول العظيم: ألا تكون رغبتك متجهةً إلى الشيء وحده، بل إلى الله. فالشيء إذا جاءك دون قربٍ منه ظل ناقصًا، وإذا فاتك وبقي لك الله لم تصبح معدماً.

إن المنافق يقول في أعماقه: حسبنا نصيبنا. أما المؤمن فيقول: (حَسْبُنَا اللَّهُ). وبين العبارتين تمتد المسافة كلها بين قلبٍ يعبد العطاء، وقلبٍ عرف المُعطي.

الفصل السادس والعشرون

حين لا تترك الرحمة لأهواء الناس

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

بعد أن كشف القرآن أولئك الذين جعلوا رضاهم تابعًا لنصيبتهم من الصدقات، جاء ليبين أن أموال الزكاة لا تُقسَّم بإرضاء الأصوات المرتفعة، ولا تحت ضغط الطامعين، وإنما توزَّع وفق ميزانٍ أنزله الله.

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ).

إنها صيغة حصرٍ تقطع الطريق على العبث. فالزكاة ليست مالا بلا صاحب يستطيع الحاكم أو المتنفذ أن يجعله جسراً لشراء الولاءات، بل حقٌ حدَّ الله مصارفه، وصان به حاجة الضعفاء من مزاج الأقوياء.

بدأ بالفقراء والمساكين؛ لأن المجتمع الذي يترك بعض أفرادهِ يطحنهم الحرمان، بينما تتراكم الأموال عند أطرافه، مجتمعٌ أصيب في معنى الأخوة قبل أن يصاب في اقتصاده.

ثم ذكر العاملين عليها؛ فالعمل المنظم لحفظ المال وجمعه وإيصاله له كلفته ورجاله. فالنية الطيبة وحدها لا تبني عدالة؛ لا بد من مؤسسة أمينة تحمل الرحمة من الشعور إلى الواقع.

والمؤلفة قلوبهم تذكير بأن بعض القلوب تحتاج إلى رفيق يزيل عنها وحشة الطريق، أو عطاء يثبتها ويكف شرها بحسب ما يقدره ولي الأمر. فالإنسان لا يدخل دائماً أبواب الحق من الدافع نفسه، وقد يكون الإحسان نافذة يرى منها جمال الدين قبل أن يستقر الإيمان في أعماقه.

(وَفِي الرِّقَابِ).

جاء الإسلام إلى عالمٍ استقر فيه الرق نظاماً ممتداً، ففتح أبواب التحرير، وجعل من مال الزكاة قوة تفك القيود عن الإنسان. وكأن المجتمع المؤمن لا تكتمل عبادته وفيه رقاب تتطلع إلى الحرية.

والغارمون أثقلتهم الديون المباحة؛ قد يكون المرء غني النفس، كريم الخلق، ثم تحاصره الحاجة من جهة لم يحسبها. فيأتي حقه من الزكاة ليقول له: تعثر كالمالي لا يسلبك كرامتك، والمجتمع ليس متفجعاً على سقوطك.

(وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ): لما تقوم به مصالح نصره الدين في معناها المعتبر عند أهل العلم، وفي مقدمتها الجهاد المشروع وإعداده.

ثم ابن السبيل الذي انقطعت به الطريق، ولو كان موسراً في بلده؛ لأن الإنسان يُنظر إليه في حاله الحاضرة، لا في عنوانه البعيد. قد يكون غنياً في مكان، فقيراً في مكان آخر، وتلك من دقة الشريعة في فهم الحاجة.

(فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ).

ليست منحةً من الأغنياء للفقراء حتى يمنّوا بها عليهم، بل فريضةً من الله. الغني يؤدي حقاً استُخلف فيه، والفقير يأخذ نصيباً قسمه له رب العالمين.

ثم تختم الآية باسمين: (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

عليمٌ بمداخل الفقر والحاجة، حكيمٌ في توزيع ما يقيم التوازن ويحفظ الكرامة. وما كان البشر ليضعوا هذا الميزان لو تُرك المال لطبائع النفوس؛ لأن اليد التي تملك تميل عادةً إلى أن ترى ملكها حقاً خالصاً، فجاء الوحي ليذكّرنا بأن في مالها أبواباً لا تُفتح لها، بل للآخرين.

الفصل السابع والعشرون

الأُذُنُ الَّتِي كَانَتْ أَبَاً لِلرَّحْمَةِ

(وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

كان المنافقون يتحدثون في مجالسهم، ثم إذا بلغ كلامهم النبي ﷺ جاؤوا
بالمعاذير، وقال بعضهم لبعض: إنه أُذُنٌ، يسمع من كل أحد ويقبله.

أرادوا أن يجعلوا من حلمه نقصاً، ومن حسن استماعه سذاجةً، ومن ستره
عليهم عجزاً عن معرفتهم.

لكن القرآن لم ينف عنه حسن الإصغاء، بل صحح معناه: (قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ).

هو يستمع إلى ما فيه خيركم، ولا يتعجل فضيحتكم، ويقبل أذاركم في
الظاهر ما لم يقر برهاناً على خلافها. كانت رحمته تمنحهم مساحةً ليراجعوا
أنفسهم، لكنهم قرؤوا الرحمة ضعفاً؛ لأن النفوس المريضة لا تفهم الأخلاق
العليا إلا من خلال قاموسها المنخفض.

(يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ).

إيمانه بالله تصديق وعبودية، وإيمانه للمؤمنين ثقةً بصدقهم وقبول لما يخبرون به. أما المنافقون فيسمع أقوالهم وفق ظاهرها، لكنه لا يهبهم من ثقة القلب ما يهب المؤمنين.

(وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ).

لم يكن ﷺ رحمةً لأن كلامه لينٌ فحسب، بل لأن وجوده كله كان باباً يخرج الناس به من ظلمة الجهل إلى سعة الهدى. حتى عتابه رحمة، وحتى حزمه رحمة؛ فالرحمة ليست ترك الإنسان لمرضه، وإنما أخذه إلى الشفاء بأرفق طريقٍ يبلّغه.

ثم تسمى الآية فعلهم: (يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ).

قد تكون الكلمة التي يظن صاحبها عابرةً أذىً عند الله؛ لأن مقام النبوة ليس مجالاً للسخرية واللمز. ومن آذى حامل الرسالة فقد أعلن فساد علاقته بالرسالة نفسها، وإن أبقى على لسانه ألفاظ الانتساب.

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ).

هم لا يحلفون لأن الحقيقة عزيزة عليهم، بل لأن صورتهم عند الناس مهددة.

(لِيُرْضُوكُمْ).

أصبح همهم أن يهدأ المجتمع من حولهم، لا أن يصلح ما بينهم وبين الله. يريدون إغلاق القضية في أعين الناس، ولو بقيت مفتوحة في صحيفة الغيب.

إن الإنسان حين يجعل رضا الناس غايته يتعلم بسرعة فنون التلون؛ فلكل مجلس وجه، ولكل قوة خطاب، ولكل جمهور كلمة. لكنه يفقد في هذا التعدد وجهه الحقيقي.

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ).

وحدّ الضمير في (يُرْضُوهُ)؛ لأن رضا الرسول ﷺ تابع لرضا الله، لا جهةً مستقلةً عنه. فالرسول لا يدعو إلى نفسه، ولا يشرع من دون ربه، وإنما رضاه في اتباع ما جاء به من عند الله.

والآية تعيد ترتيب مركز المراقبة: لا تسأل أولاً هل اقتنع الناس بعذرِك، بل هل رضي الله عن صدقِك؟ قد تنجح في إدارة الانطباع، لكنك لا تستطيع أن تدير علم الله.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ).

المحادّة أن يقف المرء في حدٍّ يقابل حدَّ الحق؛ أن يجعل حياته في جهةٍ تناقض أمر الله ورسوله، ثم يظن أن بعض مظاهر الانتساب ستعفيه من حقيقة موقفه.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا).

المشكلة ليست غياب المعلومة وحده، بل غياب أثرها. فقد يعلم الإنسان بلسانه أن الله مطلع عليه، ثم يتصرف كأنه لا يراه. ويعلم أن الآخرة حق، ثم يبني قراراته كلها على أن الدنيا هي النهاية.

العلم الذي لا يعيد ترتيب السلوك قد يبقى خبرًا في الذهن، ولم يصبح بعد نورًا في القلب.

(ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ).

كانوا يخشون خزي الفضيحة في المدينة، فيحلفون لإرضاء الناس، فهربوا من خزي مؤقت إلى الخزي العظيم. وكم يرتكب الإنسان من باطل حتى يحفظ صورةً ستسقط بعد أيام، ثم يخسر صورته في الموضع الذي لا ينفع فيه ترميم!

الفصل الثامن والعشرون

السورة التي كانت تنزل من وراء الأقبعة

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ).

كانوا يخشون القرآن؛ لا لأنه غامض، بل لأنه واضح إلى الحد الذي يفضحهم. يشعرون أن الوحي يلاحق الكلمات التي يدفنونها في مجالسهم، وينفذ إلى المقاصد التي ظنوا أن الصدور أغلقت عليها.

(بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ).

إنهم لا يخافون انكشاف فعلٍ عارض فقط، بل انكشاف البنية الداخلية التي أنتجت أفعالهم: الكراهية، والشك، والشماتة، والتربص.

ولذلك سُميت السورة عند أهل العلم **الفاضة**؛ لأنها لم تكتفِ بوصف النفاق وصفاً عاماً، بل تعقبت حركاته ولغته وأعداره ومخاوفه.

(قُلِ اسْتَهِزُّوا).

ليس إذنًا لهم بالاستهزاء، بل تهديدٌ يحمل معنى: امضوا في الطريق الذي اخترتموه، فإن ما تخفونه خارجٌ لا محالة. قد يتأخر انكشاف الباطل، لكنه يحمل

في داخله بذرة فضيحتة؛ لأن صاحبه يحتاج في كل مرةٍ إلى قناعٍ جديد، حتى تتعارض الأقنعة ويسقط الوجه بينها.

إن الإنسان يستطيع أن يخفي الحقيقة عن الناس بعض الوقت، لكنه لا يستطيع أن يخفيها عن نفسه إلى الأبد، ولا عن الله لحظة واحدة.

(وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠١﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ).

حين كشف استهزاءهم قالوا: لم نكن جادين، إنما كنا نخوض ونلعب.

إنها الحيلة القديمة التي تجعل المزاح منطقة بلا مسؤولية، كأن الكلمة تفقد معناها ما دام قائلها يبتسم. لكن القرآن يقرر أن المقدسات لا تتحول إلى مادةٍ مباحةٍ للازدراء لمجرد أن صاحبها سمى فعله لعباً.

(أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ).

يضع القرآن أمامهم حقيقة الموضوع الذي استهدفوه؛ فالمسألة ليست دعابةً بريئة، بل موقفٌ من الله وآياته ورسوله. والأشياء تُقاس بحقائقها وأثارها، لا بالأسماء التي يختارها الفاعل لتخفيف قبحها.

(لَا تَعْتَذِرُوا).

لأن اعتذارهم لم يكن توبةً ولا ندمًا، بل محاولة للهروب من النتيجة مع الاحتفاظ بالجريمة في الداخل. والاعتذار الذي لا يعترف بالخطأ ليس رجوعًا عنه، بل إعادة صياغة له.

(قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ).

فالاستهزاء بالله وآياته ورسوله ليس مخالفةً صغيرة، وإنما هدمٌ لأصل التعظيم الذي يقوم عليه الإيمان. وليس في الآية رخصة للأفراد أن يفتحوا القلوب أو ينزلوا الأحكام على المعين بغير علم وقضاء؛ فباب الأحكام له شروطه وموانعه وأهله. لكنها تكشف خطورة الفعل في ميزان الله.

ثم تفرق الآية بين طوائفهم: قد يُعفى عن تاب وصدق، ويعذب من أصر على إجرامه. حتى في هذا الموضع لا يغيب إمكان الرجوع؛ لأن سورة التوبة تفضح الداء، لكنها لا تبيّن المريض من العلاج.

الفصل التاسع والعشرون

مجتمع النفاق: تشابه القلوب وإن اختلفت الوجوه

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ).

النفاق ليس خللاً فردياً يبقى محبوساً في نفس صاحبه؛ إنه يصنع مجتمعاً صغيراً، يتبادل أفرادُه التشجيع، ويمنح بعضهم بعضاً شعوراً زائفاً بالصواب.

(بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ).

تتشابه منابِعهم ولو اختلفت أشكالهم. تجمعهم رابطة المصلحة والخوف من انكشاف الحقيقة، فيتعاقدون على قلب الميزان.

فبدل أن يأمرُوا بالمعروف وينهَوْا عن المنكر، انعكست الفطرة : (يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ).

لا يكتفون بفعل المنكر، بل يحولونه إلى ثقافة لها دعاة، ويجعلون المعروف غريباً يحتاج صاحبه إلى الاعتذار. فإذا طال الانقلاب صار المستقيم متشدداً، والخائن واقعياً، والبخيل حريصاً، والمتلون حكيماً.

(وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ).

بخُلٍّ بالمال، وبالجهد، وبالمساندة، وبكل ما يحتاج إليه الحق. يريدون من المجتمع أن يحميهم، لكنهم لا يريدون أن يدفعوا ثمن قيامه. يأخذون من الجماعة أمنها، ويخلون عليها بواجبها.

(نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ).

ليس نسيان الله كنسيان البشر؛ فالله لا يضل ولا ينسى، سبحانه. معناه أنهم تركوا ذكره وطاعته، فتركهم من رحمته وتوفيقه، وجازاهم من جنس فعلهم.

نسوا الله في قراراتهم، فلم يسألوا أين رضاه. وفي كلامهم، فلم يبالوا بعلمه. وفي أموالهم، فلم يروا حقه. فكان الجزاء أن تُركوا في ظلمة نفوسهم، ولا وحشة أشد من أن يُوكل الإنسان إلى نفسه.

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ).

في الدنيا قال المؤمنون: (حَسْبُنَا اللَّهُ).

وهنا يقول عن المنافقين: (هِيَ حَسْبُهُمْ).

من لم يكتفِ بالله في الدنيا، واكتفى بمصلحته وشهوته وصورته، صار مصيره هو الذي يكفيه في الآخرة. ما أقسى المقابلة بين حسبِ يملأ القلب أُمْنًا، وحسبِ يحيط بصاحبه نارًا!

(وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ).

واللعنة إبعادٌ عن الرحمة؛ وهو المصير الذي صنعه حياةٌ كاملة من الابتعاد عن الحق، لا زلَّةٌ عابرة ندم عليها صاحبها.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ).

كانوا يتجنبون مشقةً مؤقتة في تبوك، فاختروا من حيث لا يشعرون عذابًا مقيمًا. وهذه مأساة الرؤية القصيرة: ترى حر الظهيرة ولا ترى نار المصير، وتحسب أيام السفر ولا تحسب امتداد الأبد.

الفصل الثلاثون

التاريخ حين يصبح مرآة لا حكاية

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

يظن كل جيل أن غروره جديد، وأن قوته لم يعرف التاريخ مثلها، وأنه يستطيع الإفلات من السنن لأن أدواته مختلفة.

لكن القرآن يرددهم إلى الطابور الطويل: (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ).

كانوا أشد قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً. فليست كثرتم اختراعاً، ولا سلطانكم استثناءً. سبقكم من كان أرسخ أقداماً، ثم انتهى حين انتهت المدة التي كتبها الله له.

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ).

أخذوا نصيبهم العاجل من الدنيا، وجعلوه الغاية كلها. لم يكن الخطأ في أصل الاستمتاع، بل في أن يصبح النصيب المحدود هو تعريف الحياة الكامل، فنُستهلك الأعمار في خدمة اللحظة، ويصل الإنسان إلى آخر الطريق بيدٍ ممتلئة من الزائل وقلبٍ خالٍ من الباقي.

(وَحُضُّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا).

الخوض دخولٌ في الكلام والباطل بلا هدى، كمن يمشي في ماءٍ مضطرب لا يرى موضع قدمه. تتغير مجالس الخوض وأدواته، لكن جوهره باقٍ: كلامٌ في الحق بلا علم، واستهزاءً بالقيم، وإضاعة للوعي في ضجيجٍ لا يبني شيئاً.

إن التاريخ لا يعيد الأشخاص، لكنه يعيد السنن. ومن تشابهت مقدماته مع من سبقوه، فليس له أن ينتظر خاتمةً مختلفةً لمجرد أن اسمه جديد.

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

تفتح الآية كتاب الأمم: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، وقرى قوم لوط المؤتفكات.

اختلفت البلاد والأزمنة وصور الانحراف، لكن لحظة واحدة جمعتهم: جاءتهم الرسل بالبينات، فاختاروا أن يقفوا ضد النور.

ولم يهلكوا لندرة الدليل: (أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ).

كان البيان حاضراً، لكن المشكلة أن الهوى لم يرد أن يرى. فالبرهان لا يهدي قلباً اتخذ قراره قبل أن يسمع، والعين المفتوحة شكلاً قد تكون مغمضة بالإرادة.

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ).

ينزه القرآن ساحة العدل الإلهي؛ لم يؤخذوا بلا حجة، ولم يعاقبوا على شيء لم يفعلوه، ولم تنقص لهم حسنة أو تزد عليهم سيئة.

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

كانوا يبنون مصيرهم بأيديهم، وكل معصية حرجٌ جديد في الجدار الذي حجبهم عن الرحمة.

التاريخ في القرآن ليس مقبرة نتأمل شواهدا، بل مرآة توضع أمام الأحياء. والسؤال ليس: كيف هلكوا؟ بل: أي شيء من أسباب هلاكهم ما يزال يعمل فينا؟

الفصل الحادي والثلاثون

مجتمع الولاية: حين يتناصر المؤمنون على الحياة

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

في مقابل قوله عن المنافقين: (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)، يقول هنا: (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ).

المنافقون تجمعهم المشابهة والمصلحة، أما المؤمنون فتجمعهم الولاية: محبةً ونصرةً ورعايةً ومسئولية متبادلة.

وقد ساوى السياق بين المؤمنين والمؤمنات في صناعة المجتمع الأخلاقي. فالمرأة ليست هامشاً يتلقى صلاح الجماعة، بل طرفٌ في بنائه: تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتطيع الله ورسوله.

إن المجتمع المؤمن لا يقوم بفردٍ بطل بينما البقية جمهور متفرج؛ بل بشبكة من الولاية يحمل بعضها بعضاً. إذا ضعف أحدهم أسنده الآخر، وإذا انحرف رده برفق، وإذا ظلم نصره، وإذا احتاج أعانه.

(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ).

لا يكتفون بأن يكونوا صالحين في عزلة، بل يريدون للخير أن يصبح هواءً عامًّا يتنفسه الجميع.

(وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ).

لا تشفياً من العاصي، ولا طلباً للعلو عليه، بل حمايةً له وللمجتمع من أثر المعصية. والنهي الذي يخلو من الرحمة قد يهزم المنكر في الظاهر ويزرع مثله في القلب؛ لذلك لا بد أن يكون معروفًا في طريقته كما هو معروف في غايته.

ثم الصلاة والزكاة: صلة بالله، وصلة بالخلق. فالتدين الذي يعتني بالمحراب ويهمل حاجة المجتمع ناقص، والعمل الاجتماعي الذي ينقطع عن الله يفقد روحه وبوصلته.

(أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ).

لم يقل: سيدخلون الجنة بأعمالهم مستقلة، بل رد النجاة إلى الرحمة. يعملون، ويتناصرون، ويطيعون أمر الله، ثم يظلون واقفين عند باب فضله.

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

بعد أن ترك المؤمنون مساكن يحبونها، وأنفقوا أموالاً جمعوها، وخرجوا في الحر، وعدهم الله بمساكن لا يعبرها الفقد: (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ).

طيبٌ في المكان، وفي الصحبة، وفي الشعور، وفي دوام الأمن. لا ذكريات مؤلمة تسكن الزوايا، ولا خوف من رحيلٍ قادم، ولا جدارٌ يخفي وراءه حزنًا.

لكن الآية، بعد كل ما وصفت من الجنات والأنهار والمساكن، ترتفع إلى نعيم أعظم: (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ).

فالجنة مخلوقة، ورضا الله متعلقٌ بقرب العبد من ربه. وكل نعيم الجنة يصبح أكمل حين يعلم صاحبها أن الله رضي عنه، وأن زمن الخوف من التقصير قد انتهى، وأن الطريق الذي قطعه في الشوك أفضى إلى هذا القبول.

في الدنيا كان المؤمن يسأل نفسه: هل رضي الله عني؟ أما هناك فيأتي الجواب الذي يملأ الأبد كله طمأنينة.

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

ليس الفوز أن ينجو الجسد من تعب تبوك، ولا أن تتسع الأموال والمساكن، بل أن يبلغ الإنسان نهاية الطريق وقد رضي الله عنه.

كل فوزٍ لا ينتهي إلى هذا الرضوان صغير، ولو صَقَّ له العالم كله. وكل خسارةٍ دنيوية تقود إليه هينة، ولو بكى صاحبها في أول الطريق.

الفصل الثاني والثلاثون

الحزم حين تصبح الرحمة رخاوةً في غير موضعها

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ).

بعد أن كشفت السورة طبقات النفاق، لم يعد التعامل معه قائماً على مجرد الستر والإمهال. فالرحمة لا تعني أن يُترك المرض حتى يفتك بالجسد كله، واللين ليس فضيلةً حين يتحول إلى حصانةٍ للمفسدين.

(جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ).

جهاد الكفار المحاربين يكون بما شرعه الله من قتالٍ حين تتوافر أسبابه وضوابطه تحت سلطان الدولة، أما المنافقون الذين أظهروا الإسلام فلم يعاملهم النبي ﷺ معاملة الكفار المعلنين، وإنما جاهدهم بالحجة والبيان وكشف مخططاتهم وإقامة أحكام الظاهر عليهم، والغلظة المناسبة التي تمنعهم من العبث بالصف.

فالآية لا تلغي الفروق بين الحالتين، لكنها تجمعهما في وجوب مقاومة خطرهما كلٌّ بما يلائمه.

(وَاعْلُظْ عَلَيْهِمْ).

ليست الغلظة قسوة نفسيةً أو فظاظَةً عمياء؛ بل صلابة في موضعٍ أصبح اللين فيه أداةً يستغلها المخادع. فقد يكون التبسم رحمةً في موقف، ويكون الحزم رحمةً في موقف آخر. والحكمة ليست أن تملك خُلُقًا واحدًا تستعمله في كل الأحوال، بل أن تضع كل خلقٍ في موضعه.

إن من الرحمة بالمجتمع ألا يُترك المتآمر ينهش أمنه باسم التسامح، ومن الرحمة بالمريض ألا يُجامل في الداء حتى يستعصي علاجه.

الفصل الثالث والثلاثون

الكلمة التي هدمت ما بنته الأيمان

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ).

مرةً أخرى يلجؤون إلى الحلف؛ كأن كثرة القسم تستطيع أن تمحو حقيقة القول.

(مَا قَالُوا).

لكن علم الله يستخرج الكلمة من المجلس الذي ظنوها دُفنت فيه : (وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ).

قد ينسى الإنسان الكلمة بعد أن يقولها، لكنها لا تنتهي بانتهاء صوتها. تبقى في أثرها، وفي القلب الذي جرحته، وفي الصحيفة التي كُتبت فيها. ولهذا كان ضبط اللسان ضبطاً للمصير؛ فكلمة واحدة قد تكشف بناءً كاملاً من الانحراف.

(وَهُمْ أَوْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا).

لم يكن النفاق كلامًا ساخرًا فقط، بل تحركت منه إرادة التآمر، وإن أخفق أصحابها في بلوغ غايتها. وقد يعلم الناس النتيجة ولا يعلمون الخطة التي أحبطها الله في الطريق؛ فننجو أحيانًا من شر لم نره، ونعيش في سلامة لا نعرف عدد الأخطار التي صُرِفَتْ عنا قبل أن تصل.

ثم يكشف القرآن قبح دوافعهم: (وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ).

لم ينتقموا من ظلم وقع عليهم؛ بل كان ذنب الدعوة في حسابهم أنها أغنتهم بعد فقر، وجمعت لهم من الخير ما لم يكونوا يملكونه. ردّوا النعمة بالحق، لأن قلوبهم رأت في الفضل حقًا مكتسبًا، لا منّة تستوجب الشكر.

وقد يفسد الإحسان نفسًا مريضة بدل أن يصلحها؛ لأنها لا تقرأه فضلًا، بل تقرأه اعترافًا باستحقاقها، ثم تطلب المزيد، فإذا تأخر انقلبت على صاحب الإحسان.

ومع كل هذا التاريخ يقول الله: (فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ).

تظل التوبة أقرب إليهم من العذاب ما داموا أحياء. لم تغلق كلمة الكفر، ولا التآمر، ولا جحود النعمة باب الرجوع. إن الله يفضح الجريمة كي يقتلها في نفس صاحبها، لا ليمنعه من العودة.

الفصل الرابع والثلاثون

العهد الذي فضحه المال

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لِنِ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١﴾
فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ).

في زمن الفقر كانت الوعود سخية: إذا أعطانا الله سنعطي، وإذا أغنانا سنكون من الصالحين.

يظن الإنسان أحياناً أن الذي يمنعه من الخير هو نقص الوسائل، وأنه لو اتسعت يده لاتسع عطاؤه. لكن المال لا يخلق الصفات دائماً؛ إنه يكشفها. من لم يتعلم الكرم بالقليل قد لا يصير كريماً بالكثير، بل قد يكبر معه خوفه على ما يملك.

(فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ).

تحققت الجهة الأولى من العهد؛ جاء الفضل. وهنا انتهى زمن التمني وبدأ امتحان الوفاء.

(بَخِلُوا بِهِ).

الباء توحى بتعلقهم بالمال؛ بخلوا مصاحبين له، ممسكين به، كأن إخراج جزء منه اقتطاعٌ من ذواتهم.

لم تكن المشكلة أنهم لم يملكوا، بل أن ما ملكوه امتلكهم. كان الفقر يتيح لهم أن يتخيلوا أنفسهم كرماء، فلما جاء الغنى أزال الخيال، وأظهر الإنسان الذي كان مختبئاً خلف العجز.

(وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ).

تولّ بالجوارح، وإعراضٌ بالقلب. لم ينسوا الوعد عفواً، بل ابتعدوا عنه بإرادة لا تريد أن تتذكر.

كم من إنسان يقول: لو فتح الله لي لفعلت، بينما أبواب صغيرة من الخير مفتوحة أمامه ولا يدخلها! إن صدق المستقبل يُختبر في أمانة الحاضر؛ ومن يبخل بما يستطيع اليوم لا يكفي أن يتخيل سخاءه غداً.

(فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ).

للأفعال أعقابٌ تمشي خلفها، حتى إذا ظن الإنسان أن اللحظة انتهت أدركه أثرها.

أخلفوا الوعد وكذبوا، فكان الأثر نفاقاً يزداد رسوخاً في القلب. وهكذا لا تمر المعصية على الداخل دون أن تترك فيه شيئاً؛ إما أن يمحوها الندم والتوبة، وإما أن تتحول بالتكرار إلى طبقةٍ جديدة من القسوة.

إن العقوبة هنا من جنس الجريمة: لما جعلوا العهد كلمة لا حقيقة لها، صار باطنهم منفصلاً عن ظاهرهم. وما النفاق إلا هذا الانفصال؛ لسان في جهة، وقلب في جهة أخرى.

وقد يبدأ الأمر بوعد صغير لا يفي به صاحبه، ثم يعتاد أن يعيش بين ما يقول وما يفعل، حتى تصبح الازدواجية بيتاً داخلياً يقيم فيه.

(إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ).

مخيف أن يحمل الإنسان قلباً مريضاً حتى يلقي الله، لا لأنه أخطأ مرة، بل لأنه رفض كل فرصة للعلاج.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ).

السر ما يخفيه المرء في نفسه، والنجوى ما يهمس به إلى غيره بعيداً عن الأسماع. وكلاهما ظاهر في علم الله.

قد تخفض صوتك، وتغلق بابك، وتختار من تثق بأنه لن ينقل كلامك؛ لكنك لا تخرج من سعة العلم الإلهي.

(عَلَّامُ الْغُيُوبِ).

يعلم الفكرة قبل أن تصير عبارة، والنية قبل أن تتحول إلى فعل، والخيط الأول للمؤامرة قبل أن يعرف أصحابها نهايتها.

وهذا العلم ليس رقابةً تزرع الوحشة في قلب المؤمن؛ بل هو أيضاً أمان. فالله يعلم صدقاً لم تستطع التعبير عنه، وألماً أخفيتَه، وخيراً فعلته ولم يرك فيه أحد. العلم نفسه الذي يفضح المنافق ينصف المخلص.

الفصل الخامس والثلاثون

حين يسخر العاجزون عن البذل من الباذلين

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

المنافق لا يريد أن يعطي، لكنه لا يكتفي بالبخل؛ بل يسخر ممن يعطي حتى لا يبقى البذل شاهداً على تقصيره.

إن جاء الغني بمالٍ كثير قالوا: مرأى يريد السمعة. وإن جاء الفقير بما استطاع قالوا: وما يغني هذا القليل؟

هكذا يصنع القلب المريض حكماً لا يستطيع المحسن النجاة منه؛ الكثير رياء، والقليل لا قيمة له. والغاية ليست تقويم الصدقة، بل قتل روح الخير.

(وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ).

ربما حمل الرجل شيئاً يسيراً بعد يومٍ من الكد، وهو في ميزان الناس لا يملأ اليد، لكنه في ميزان الله يحمل تعب الجسد وصدق القلب.

فقيمة العطاء ليست في حجمه مجرداً، بل فيما يمثله من طاقة صاحبه. قد يعطي الغني ألفاً فلا يشعر بنقصها، ويعطي الفقير درهماً فيكون قد اقتطع من

ضرورته. الناس يرون العدد، والله يرى المسافة التي قطعها المال من القلب إلى اليد.

(فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ).

السخرية من الطاعة ليست كلمةً على صاحبها وحده؛ إنها اعتداء على القيمة التي يحملها. ومن لم يستطع منافسة الصادقين في البذل، حاول أن يخفضهم بالسخرية حتى يظل قاعدًا دون أن يشعر بصغره.

(سَخَرَ اللَّهُ مِنْهُمْ).

جزاء من جنس عملهم على الوجه اللائق بجلال الله، من غير تمثيل ولا تكيف؛ أي جازاهم على سخريتهم وأهانهم. تنزَّه سبحانه، فليس كمثله شيء.

الفصل السادس والثلاثون

حين تبلغ النفس حدًّا لا ينفع معه الاستغفار

(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ).

ليس في الآية إغلاقٌ لباب التوبة أمام الحي إذا تاب، وإنما بيانٌ أن استغفار غيره له لا ينفعه ما دام مصرًّا على الكفر والنفاق حتى مات عليه.

(سَبْعِينَ مَرَّةً).

ليس المراد حصرًا عدديًّا يجعل ما بعد السبعين ممكنًا، بل بيان أن كثرة الاستغفار لا تغير الحكم ما دام سببه قائمًا. فالدعاء ليس وسيلةً لإلغاء عدل الله، والقراية من الصالحين لا تعوض إصرار الإنسان على رفض الحق.

إن كل نفس تحمل مسئولية اختيارها. قد يحبك نبي، ويدعو لك صالح، لكن لا أحد يستطيع أن يؤمن بدلًا عنك، ولا أن يتوب بقلبه عن قلبك.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ).

المنع لم يكن شحًّا في المغفرة؛ فمغفرة الله واسعة، ولكنهم أغلقوا بابها من داخلهم بالإصرار. الشمس لا تبخل بالنور على بيت، لكن البيت الذي يسد نوافذه يختار ظلمته.

الفصل السابع والثلاثون

الفرح الذي فضح موضع القلب

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ).

لم يحزنوا لفوات شرف الصحبة، بل فرحوا بالقعود.

وهنا كانت المصيبة الأعمق. فقد يتخلف المؤمن لعجز فيبيكيه عجزه، أما هؤلاء فاستراحوا إلى غيابهم، وشعروا أنهم ربحوا حين أفلتوا من الواجب.

(بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ).

المقعد ليس مكاناً ساكناً؛ لقد صار موقفاً في الجهة المخالفة. فحين يسير الرسول ﷺ إلى وجهة، يصبح القعود المتعمد اتجاهاً مضاداً، ولو لم يتحرك صاحبه خطوة.

(وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ).

لم يكتفوا بأن يقعدوا، بل دعوا غيرهم إلى القعود؛ لأن النفس المتخاذلة تضيق بمشهد المتقدمين. وجود المضحي يفضح حسابات المتناقل، فيحاول أن يحوله إلى نسخة منه.

وكان الحر حقيقياً، لكنهم أخذوا حقيقةً جزئيةً وجعلوها الحجة كلها. وهذا من تلبيس الباطل: قد يستعمل معلومة صحيحة ليصل بها إلى موقف فاسد.

(قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا).

قارنوا بين حرٍّ مؤقت يُتحمل في طاعة الله، وحرٍّ أشد صنعوه بهروبهم. إن الإنسان لا يختار دائماً بين الراحة والمشقة، بل قد يختار بين مشقةٍ تعبر به إلى النجاة ومشقةٍ تبدأ بعد أن تنتهي الراحة.

(لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ).

لديهم إحساس بحرارة الشمس، لكنهم لا يفقهون مآل القرار. والفقهاء ليس معرفة سطح الظاهرة، بل إدراك ما وراءها ونهايتها.

(فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

ضحكوا حين خرج المؤمنون إلى العناء، وظنوا أنهم أحسنوا تدبير حياتهم. لكن ضحك الدنيا قليل، مهما طال؛ لأن الدنيا نفسها قليلة.

(وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا).

ليس أمراً تكليفاً لهم بصناعة البكاء، بل خبرٌ في صورة الأمر عن انقلاب المصير. سيكتشفون أن اللحظة التي ضحكوا فيها كانت تزرع زمناً طويلاً من الندم.

(جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

لم يُفرض عليهم مصير بلا سبب؛ كانوا يكسبونه كل يوم، كما يكسب التاجر ماله. كل كذبةٍ قطعة، وكل قعودٍ متعمد قطعة، وكل سخريةٍ قطعة، حتى اجتمع الرصيد الذي سيواجهونه.

ما أخطر أن يفرح الإنسان بما ينبغي أن يبكي منه، وأن يبكي مما كان ينبغي أن يفرح به! فالنفاق لا يفسد الأفعال وحدها، بل يقلب الجهاز الوجداني كله.

الفصل الثامن والثلاثون

سقوط شرف المشاركة

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ).

قد يعودون بعد انقضاء الشدة، طالبين المشاركة في رحلة أخرى؛ لعلها أقرب غنيمةً وأخف مؤونة. لكن الفرصة التي أضاعوها لم تكن مجرد مقعدٍ شاغر يمكن استعادته متى شاءوا.

(لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا).

إنه حرمانٌ من شرف الصحبة العسكرية، وعزلٌ لمن أثبتت التجربة أنه لا يحمل مسئولية الصف. فالجماعة التي لا تحفظ ذاكرتها التنظيمية تكرر إخفاقها؛ تعيد الثقة إلى من خانها بلا توبة ظاهرة ولا مراجعة، ثم تتعجب حين تتكرر الخيانة.

(إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ).

لم يكن القعود عجزاً؛ كان رضا. والرضا بالموقف هو الذي حوَّله من حادثة إلى هوية.

(فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ).

الشيء الذي اختاروه امتيازًا صار وصمةً وجزاءً. ظنوا أن المشاركة عبء، فلما سُلِبَت منهم ظهر أنها شرف.

بعض النعم لا يعرف الإنسان قيمتها إلا حين يُمنع منها، وبعض الأبواب إذا أُغْلِقَتْ لم يكن المؤلم أن الطريق وراءها شاق، بل أن الله لم يعد يريدك في ذلك الطريق.

الفصل التاسع والثلاثون

حين ينقطع الرجاء عمّن مات على نفاقه

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ).

الصلاة على الميت دعاءٌ وشفاعة، والقيام على قبره تكريمٌ ومواساة. لكن من مات على نفاقه المعلوم بوحى الله لم يعد من أهل هذا الدعاء.

(وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ).

ليست العبرة بأن الإنسان مرّ بالفسق في حياته؛ فكم من عاصٍ تاب فبدّل الله سيئاته حسنات. إنما الخطر في الخاتمة: أن يلقى المرء الله وهو مصرٌّ لم يرجع ولم يرجع.

ولا يملك أحد بعد انقطاع الوحي أن يفتش القلوب فيحكم لأشخاص بأعيانهم بالنفاق الأكبر لمجرد خصومةٍ أو ظن؛ نحن مأمورون بأحكام الظاهر، والسرائر إلى الله. فالآيات تصف ظاهرةً كشفها الوحي في مجتمع النبوة، وتضع لنا علاماتها للتحذير والتربية، لا لتمنح الأهواء سلاحًا لتكفير الخصوم.

إن أكثر الناس ادعاءً لمعرفة القلوب قد يكون أقلهم معرفةً بقلبه.

(وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ).

تتكرر الآية بمعناها؛ لأن فتنة المال والولد لا تزول بتنبيه واحد. العين تعود إلى الانبهار، والقلب يوشك أن يقرأ الزيادة المادية بوصفها علامة تفوق.

فيعيد القرآن الميزان: لا تنظر إلى ما في أيديهم وحده، بل إلى ما صنعه في قلوبهم. النعمة التي لا تقود إلى الشكر قد تصبح قيداً من ذهب، والقيد لا يفقد حقيقته لأنه يلمع.

التكرار هنا ليس إعادةً لفظية فحسب، بل مقاومةً لتكرار الوهم في النفس. فكلما قالت الدنيا: انظر كم يملكون، قال القرآن: انظر ماذا يملكونهم.

الفصل الأربعون

حين صار الجسد حاضراً والقلب غائباً

(وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿١٣٥﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ).

لم يكن المستأذنون جميعاً ضعفاء؛ بل كان فيهم: (أُولُو الطَّوْلِ)؛ أصحاب القدرة والسعة.

وهنا يسقط آخر عذر. الأدوات موجودة، والمال حاضر، والجسد قادر، لكن الإرادة غائبة. وقد يكون العجز الحقيقي في القلب، بينما تبدو الجوارح في تمام قوتها.

(ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ).

طلبوا أن يُتركوا، وكأن النجاة في أن ينسأهم التكليف. ولم يعلموا أن من أشد الخذلان أن يتركك الله لما اخترته، فلا يوقظك نداء ولا يؤلمك تقصير.

(رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ).

قبلوا لأنفسهم الصف الخلفي لا تواضعاً، بل فراراً. والإنسان يبدأ بفعلٍ يراه مؤقتاً، ثم يرضى به، ثم يتحول الرضا إلى طبع.

(وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ).

الطبع خاتمة مسار من الإعراض المتكرر، لا ظلمٌ ابتدائي يُمنع به طالب الحق من الهدى. كلما جاءهم النداء أعرضوا، حتى فقد القلب مرونته، وصار النور يقع على بابه فلا يجد منفذًا.

(فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ).

يحسبون الأرباح والخسائر العاجلة بدقة، لكنهم لا يفقهون القيمة الحقيقية لما فاتهم. وقد يكون المرء ذكيًا في إدارة مصالحه، شديد الغباء في فهم مصيره.

الفصل الحادي والأربعون

الذين أجابوا حين تناقل الآخرون

(لَكِنَّ الرِّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ
الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ○ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

(لَكِنَّ الرِّسُولَ).

بعد مشاهد الاعتذار والعودة تأتي «لكن» كأنها تفتح نافذة في الجو الخانق.
ليس المجتمع كله منافقين، ولم يمت الخير لأن طائفة خذلت. هناك الرسول ﷺ،
وحوله مؤمنون صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

خرجوا بأموالهم وأنفسهم. لم يحملوا أجسادهم وحدها، بل حملوا ما تعلق به
القلب: المال والحياة. وحين خرجوا من ضيق الذات دخلوا إلى سعة الخيرات :
(وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ).

جاءت جمعاً معرفة كأن أبواب الخير كلها تنتظرهم: خير النصر، وخير
الطاعة، وخير الصحبة، وخير الذكر الحسن، ثم خير الجنة والرضوان.

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

الفلاح ليس أن ينجو الإنسان من حرارة يوم، بل أن ينجو معنى حياته من الضياع. وليس أن يحتفظ بماله كاملاً، بل أن يرسل منه أمامه ما يجده عند الله.

خرجوا من المدينة إلى صحراء شديدة، لكنهم في الحقيقة كانوا يسيرون إلى جناتٍ تجري من تحتها الأنهار. كانت العيون ترى غبار الطريق، وكان الوعد يرى نهاية الطريق.

(ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

أما ما حسبه القاعدون فوزاً — الظل والراحة وبقاء المال — فلم يكن إلا لحظة قصيرة أُسِدِلَ عليها الستار. وبقي الذين تعبوا في الطريق خالدين في النعيم، وبقيت خطاهم في ذاكرة الوحي.

وهكذا تصحح السورة معنى النجاح: قد يكون المتعب هو الفائز، والمستريح هو الخاسر؛ لأن القيمة ليست في هيئة اللحظة، بل في الجهة التي تنتهي إليها.

الفصل الثاني والأربعون

الأعذار بين عجز الجسد وعجز الإرادة

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

تصل موجة الاستنفار إلى الأعراب حول المدينة، فيأتي أصحاب الأعذار يطلبون الإذن، بينما يقعد آخرون دون أن يكفؤا أنفسهم عناء الحضور والاعتذار.

وتحتل قراءة (الْمُعَذِّرُونَ) معنى الذين لهم عذر، كما تحتل معنى المعتذرين المتكلفين للعذر؛ لكن الآية تفصل بوضوح صنفًا أشد سوءًا: (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ).

فليس كل متخلفٍ سواء، ولا كل قعودٍ خيانة. قد يجلس الجسد ويكون القلب في مقدمة الجيش، وقد يمشي الجسد مع الصف وقلبه يبحث عن لحظة يخذله فيها.

والقرآن لا يحاكم صورة الفعل وحدها، بل القدرة والنية والصدق. ولذلك لا يجوز أن تتحول الدعوة إلى الواجب إلى قسوة على العاجزين، ولا أن يُساوى من منعه عذره بمن اخترع عذرًا ليمنع نفسه.

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

هنا يسمي القرآن أهل الأعداء الحقيقيين: ضعفاء لا تحمل أجسادهم، ومرضى يمنعهم مرضهم، وفقراء لا يجدون زاد الطريق ولا نفقة الخروج.

(لَيْسَ عَلَيْهِمْ حَرَجٌ).

إن التكليف في الإسلام لا يأتي ليكسر الإنسان تحت ما لا يستطيع، بل ليخرجه منه أحسن ما يستطيع. والله الذي أمر بالجهاد هو الذي رفع الحرج عن عجز؛ فالشريعة لا تتناقض بين مقصدها ووسيلتها.

لكن الإعفاء من الحركة لا يعني الإعفاء من الانتماء: (إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ).

يصدقون في نياتهم، ويحفظون الصف في غياب الخارجين، ولا يخذلون، ولا يشيعون الإرجاف، ويفعلون ما يقدرون عليه. فقد يُعفى الإنسان من موقع، ولا يُعفى من صدق القلب تجاه الرسالة.

(مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ).

قاعدة تمتلئ عدلاً: لا طريق إلى لوم من أحسن ضمن قدرته. ولا يجوز أن يُطارَد العاجز بنظرات الاتهام، أو يُطالب بإثبات ألمه كل يوم لإرضاء القادرين.

إن بعض الناس يضيفون إلى ألم المريض ألم الدفاع عن مرضه، وإلى فقر الفقير مذلة البرهنة على فقره. أما الله فيعلم ضعف عبده قبل أن يشرحه، ويعرف حدود طاقته دون أن يرفع إليه ملقاً من الأعذار.

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ).

إنها من أشجى صور السورة كلها.

جاءوا إلى النبي ﷺ لا ليستأذنوا في القعود، بل ليطلبوا ما يحملهم إلى تبوك. كانت الإرادة حاضرة، والقلوب سبقت إلى الطريق، لكن الرواحل والنفقة لم توجد.

قال لهم : (لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ).

فعادوا وأعينهم لا تدمع فحسب، بل: (تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ).

كان العين ضاقت عن حمل ما امتلأ به القلب، ففاض الحزن على الوجه.

في المدينة رجالٌ يملكون المال والقوة، يختلقون الأعذار كيلا يخرجوا، وهنا رجالٌ لا يملكون شيئاً إلا الرغبة، يكون لأن الطريق لم يفتح لهم.

ما أعظم الفرق بين من يملك الوسيلة ولا يملك الإرادة، ومن يملك الإرادة وتخذله الوسيلة!

وهؤلاء، وإن لم تطأ أقدامهم أرض تبوك، كانوا في ميزان الصدق من أهل الطريق. فالنية الصادقة قد تبلغ بصاحبها موضعاً لم يبلغه الجسد، إذا كان العجز حقيقياً وبذل الإنسان ما يستطيع.

ليس كل غائب متخلفاً، وليس كل حاضرٍ واصلًا. فقد يبقى الجسد في المدينة، ويكون القلب تحت راية النبي ﷺ؛ وقد يسافر الجسد، ويبقى القلب جالساً عند مصلحته.

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

بعد أن رفع الحرج عن العاجزين، وضعه على القادرين الذين اختاروا القعود. المشكلة ليست في مكانهم، بل في المسافة بين استطاعتهم وفعلهم. فكلما اتسعت القدرة وضاق البذل، عظم السؤال.

(وَهُمْ أَغْنِيَاءُ).

لم يحتاجوا إلى من يحملهم، ولم يمنعهم فقر أو مرض. كانوا يملكون الطريق في أيديهم، لكن الأرض كانت تملك قلوبهم.

(رَضُوا).

مرةً أخرى يعود الرضا بالعودة؛ لأن السقوط يبدأ حين تتوقف النفس عن الشعور بالخل من تقصيرها، ثم تصنع للتقصير فلسفةً، ثم تفخر به.

(وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ).

جزاءً على إعراضهم المتكرر؛ اختاروا ألا يسمعون نداء الحق حتى ضعفت فيهم ملكة السماع. فالقلوب لا تُطفأ دفعةً واحدة، وإنما تخبو كلما مر بها النور فأغلقت دونه.

الفصل الثالث والأربعون

اعتذارات ما بعد العودة

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

ما إن يعود الجيش حتى تبدأ صناعة الروايات. كل متخلف يهيئ قصة تجعله ضحيةً لظرفٍ قاهر، وكأن عودتهم من الطريق تعني بدء معركةٍ أخرى: معركة تزيف الذاكرة.

(لَا تَعْتَذِرُوا).

ليس لأن الاعتذار مذموم، بل لأن هذه الأقوال لا تحمل اعترافاً ولا توبة. إنهم يريدون استعادة صورتهم دون تغيير حقيقتهم، وأن يحصلوا على براءة لغوية لا على تطهير أخلاقي.

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ).

أي لن نصدقكم؛ فقد جاء الخبر من جهةٍ لا يدخلها الاحتمال: (قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ).

وحين تنكشف الحيلة لا يعود تكرارها حجة، بل يصير إصراراً على الاستخفاف بعقول الناس.

ثم لا يخلق القرآن المستقبل تماماً: (وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ).

العمل القادم هو الذي يستطيع أن يثبت تحولاً حقيقياً. فالتوبة ليست بياناً صحفياً عن الندم، بل تاريخٌ جديد يكتبه السلوك.

لكن النهاية عند: (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ).

قد يقتنع الناس بالتغيير الظاهر، وقد لا يقتنعون؛ أما الله فيعلم باطنه وظاهره. وحين يُرد الجميع إليه تسقط مهارة الخطاب، ولا يبقى إلا حقيقة ما كان.

(سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُغَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

لم يعودوا يطلبون التصديق الكامل؛ غايتهم أن يُعرض المؤمنون عن مساءلتهم، وأن تمر الجريمة بلا أثر.

فجاء الأمر: (فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ).

لكن الإعراض هنا ليس قبولاً لعذرهم، بل عزلةٌ أخلاقية وسياسية تمنعهم من استعادة الثقة التي بددوها. إن بعض الناس يسيئون فهم الصفح؛ يظنون أنه يلغي

الذاكرة، ويعيد الصلاحيات قبل ظهور التوبة. أما القرآن فيفرق بين ترك الانتقام وبين منح الثقة.

(إِنَّهُمْ رَجَسٌ).

تلوثت بواطنهم بالكذب والخيانة، فلا ينبغي أن يدخل هذا التلوث إلى مراكز القرار في الجماعة.

(يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ).

إنهم لا يطلبون إصلاح ما بينهم وبين الله، بل رضا الناس.

وقد ينجحون؛ فالبشر يتأثرون بالقسم، وينسون، ويملّون المحاسبة. لذلك تقول الآية: **(فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ).**

يمكنكم من حيث الواقع أن ترضوا، لكن رضاكم لا يغيّر حكم الله: **(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ).**

كم من شخصٍ كسب المعركة الإعلامية وخسر نفسه، وخرج بريئاً في محكمة الجمهور وهو مدانٌ في ميزان الله!

ليس النجاة أن تقنع الناس بأنك لم تخطئ، بل أن ترفع الخطأ من طريقك
بالتوبة. رضا البشر قد يُنال بحسن التمثيل؛ أما رضا الله فلا يُنال إلا بصدق
التحول.

الفصل الرابع والأربعون

الأعراب: حين يصنع البُعد جفاءً أو صفاءً

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

لا تتحدث الآية عن جنس أدنى، ولا تحكم على كل ساكنٍ للبادية؛ فالآيات التالية ستذكر من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر. إنما تصف ظاهرةً يغلب فيها أثر البيئة: بُعدٌ عن مجالس الوحي، وخشونة حياة، وقلة مخالطةٍ للعلم، تجعل بعضهم أشد جهلاً بالحدود وأغلظ في الكفر والنفاق.

(وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا).

فالجهل هنا ليس صفةً عرقية، بل نتيجة بُعدٍ عن منابع التعليم. وكل بيئة تُحرم من العلم يمكن أن تنتج صورتها الخاصة من الجفاء، ولو كانت في قلب مدينة مزدحمة.

قد يسكن الإنسان إلى جوار مكتبة ويبقى أعرابيً الوعي، وقد يعيش في أقصى البادية ويحمل قلباً صافياً يسبق كثيراً من أهل الحواضر.

ثم يأتي الختام: (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

عليهم بالأفراد فلا يأخذ الصالح بحكم الغالب، حكيم في وضع كل إنسان عند منزلته الحقيقية.

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

ينفق بعضهم لا إيماناً، بل لأنه خاضع لنظام لا يحبه، فيرى النفقة غرامة محضاً ينتظر اللحظة التي يتخلص منها.

(وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ).

ينتظر انقلاب الأحوال على المؤمنين، حتى يسترد ما يظنه حرية من التكاليف. لم يدخل في المجتمع بقلبه، بل وقف على حافته يراقب اتجاه الريح.

(عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ).

الدائرة التي تمنوها لغيرهم تعود عليهم. فالشر الذي يرسله الإنسان لا يملك دائماً تحديد وجهته الأخيرة، وقد يدور حتى يجد بابه الأول.

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

وفي البيئة نفسها يخرج نموذجٌ مضيء.

المال واحد، والفعل الظاهر واحد، لكن الأول يراه مغرمًا، والثاني يراه قربات. والفارق ليس في القطعة الخارجة من اليد، بل في المعنى الذي خرج معها من القلب.

(وَصَلَّاتِ الرُّسُولِ).

يرجو دعاء النبي ﷺ واستغفاره؛ لا طلبًا لمكانة اجتماعية، بل توفًا إلى بركة الدعاء والقبول.

ثم يصدق الله ظنهم : (أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ).

ما داموا أرادوها قرْبَةً بصدق، جعلها الله كذلك. وهذا من كرم الله: يتلقى من العبد عملاً محدودًا، ثم يرفعه بنيتَه حتى يصير طريقًا إلى الرحمة.

الآيتان المتجاورتان تهدمان التعميم: ليس كل الأعراب منافقين، كما ليس كل أهل المدينة مؤمنين. الأرض لا تمنح القلب حكمه النهائي؛ الذي يمنحه ذلك هو موقفه من الله.

الفصل الخامس والأربعون

الموكب الأول: الذين فتحوا الطريق لمن بعدهم

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

بعد وجوه النفاق يظهر الموكب الذي حمل الرسالة في أيامها الأصعب.

السابقون من المهاجرين تركوا الديار والأموال، والأنصار فتحوا الديار والقلوب. أولئك خرجوا مما يحبون، وهؤلاء شاركوهم ما يحبون. ومن اللقاء بين تضحية المهاجر واحتضان الأنصاري قامت جماعة لم تؤسسها الأرض ولا العصبية، بل العقيدة.

(وَالسَّابِقُونَ).

للسبق قيمة؛ لأن من يأتي أول الطريق لا يرى أمامه آثار أقدام تطمئنه. يمشي والناس يسخرون، والنتيجة غيب، والتضحيات حاضرة. أما من يأتي بعد ظهور الثمرة فيجد من التاريخ ما يسنده.

ثم لا يحصر الفضل في الجيل الأول: (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ).

الطريق مفتوح لمن بعدهم، لكن الاتباع ليس ترديد أسمائهم ولا تحويل تاريخهم إلى أناشيد. إنه اتباعٌ بإحسان: فهمٌ لمنهجهم، وصدقٌ في حمل الدين، وعدلٌ في قراءة فضلهم، وبصيرةٌ تميز بين الوحي المعصوم والاجتهاد البشري.

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ).

هذه ذروة المقام. رضي عن صدقهم وبذلهم، ورضوا عنه ربًّا ومولى، ورضوا بشرعه وقدره ووعدده. لم يكن رضاهم غيابًا للألم؛ فقد ذاقوا الجوع والخوف والفقد، لكنه كان طمأنينةً تحت الألم، ويقينًا بأن ما عند الله خير.

إذا رضي الله عن العبد لم تعد خسارات الطريق خسارات، وإذا لم يرضَ عنه لم تستطع مكاسب الأرض كلها أن تنقذه.

الفصل السادس والأربعون

منافقون لا تعرفهم الفراسة

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ).

في المدينة التي أشرقت فيها النبوة كان هناك منافقون بلغوا من إتقان النفاق أن النبي ﷺ لم يكن يعرف أشخاصهم جميعًا إلا من أطلعه الله عليه.

(لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ).

إذا كان رسول الله ﷺ لا يعلم كل منافق بعينه دون وحي، فكيف يجروُ إنسان بعده أن يزعم امتلاك مفاتيح القلوب، وأن يوزع أحكام النفاق الأكبر على مخالفه بالظن؟

هذه الآية تربي في المؤمن تواضع المعرفة. نعرف من الناس ظاهرهم، ونحذر الصفات والأفعال، لكن علم البواطن لله. قد تخطئ الفراسة، وقد يخدع المظهر، ولا عصمة لحدس بشري.

(مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ).

تمرّسوا فيه حتى صار صنعةً متقنة. تعلموا متى يتكلمون، ومتى يصمتون، وأي وجه يقدمونه لكل مجلس. لكن إتقان القناع لا يغير الوجه في علم الله.

(سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ).

قيل في تفسيرهما أقوال: من عذاب الدنيا والفضيحة والمصائب وعذاب القبر،
والله أعلم بمراده التفصيلي. ثم وراء ذلك: (عَذَابٍ عَظِيمٍ).

إنهم قد ينجحون في خداع المجتمع، لكن النجاح المؤقت في إخفاء المرض
لا يعني الشفاء منه؛ بل قد يؤخر العلاج حتى يستفحل.

الفصل السابع والأربعون

شجاعة الاعتراف

(وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

بعد المنافقين الذين كذبوا وراوغوا، يظهر صنف آخر: مؤمنون أخطؤوا، لكنهم لم يختبئوا وراء عذرٍ مزور.

(اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ).

والاعتراف بداية التطهير؛ لأن الذنب ما دام يتخفى خلف التبرير لا يجد باباً للخروج. يحتاج الإنسان إلى شجاعة كي يقول: أنا أخطأت، بلا «لكن» تمحو الاعتراف، وبلا اتهام للظروف يبدد المسؤولية.

(خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا).

يا لها من آية تعرف الإنسان كما هو! ليس كل مقصر منافقاً خالصاً، ولا كل مؤمن بلا زلة. قد تجتمع في السيرة طاعة ومعصية، وقوة وضعف، وموقف مشرق وآخر مؤلم.

لكن الفارق أن المؤمن لا يجعل سيئته هويته، ولا يجعل حسنته ذريعةً لإنكارها. يراها، ويعترف، ويرجو أن يفصلها الله عنه بالتوبة.

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ).

و«عسى» من الله وعدٌ كريم، لكنها تترك القلب في مقام الرجاء والخوف، فلا يغتر باعترافه كأن الاعتراف وحده يمحو كل شيء.

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

يغفر الذنب فلا يبقى حاجزًا، ويرحم القلب فيعينه على ألا يعود. فالمغفرة لا تمحو الماضي فحسب؛ والرحمة تفتح مستقبلًا جديدًا.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

لم تظل توبتهم شعورًا في القلب؛ تحولت إلى بذل.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً).

فالمال الذي كان أحد أسباب التثاقل يصير وسيلةً للتطهر. والشيء الذي ربطهم بالأرض يُقْتَطَع منه ما يحررهم من أسرها.

(تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا).

التطهير إزالة لآثار الدنس، والتزكية نماء في الخير. فالشريعة لا تريد للإنسان أن يخرج من السيئة إلى الصفر، بل أن يتحول الجرح نفسه إلى موضع نضج وقرب.

والصدقة تطهر المعطي من الشح، وتطهر المجتمع من الحقد الذي ينشأ حين يرى المحرومون النعمة محبوسةً عنهم، وتزكي المال بإخراج حقه، وتزكي النفس حين تتعلم أن ما تنفقه لله لا تفقده.

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ).

ادع لهم يا رسول الله؛ فلم يعودوا أولئك الذين يختلقون الأعداء، بل تائبين يحتاجون إلى الطمأنينة.

(إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ).

بعد اضطراب الذنب يأتي دعاء الرسول ﷺ سكناً؛ يشعرون أن الجماعة لم تطردهم من تاريخها، وأن التوبة أعادتهم إلى موضع الأمان.

إن المذنب التائب لا يحتاج إلى من يذكره بخطيئته كلما حاول النهوض، بل إلى بيئة تعينه على بناء نفسه من جديد.

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

قد يأخذ الرسول ﷺ الصدقة بيده، لكن المتقبل الحقيقي هو الله.

(وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ).

أي يتقبلها قبولاً كريماً على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكيف؛ سبحانه ليس كمثله شيء.

إن الفقير الذي تصل إليه صدقتك ليس نهاية الطريق؛ المال يرتفع أولاً بمعناه إلى الله قبل أن يستقر في يد المحتاج. ولذلك لا تمنّ على الفقير؛ فهو لم يأخذ منك فضلاً خالصاً، بل كان باباً قَلَّ الله عبره صدقك وطهر به مالك.

(هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ).

قد يرفض الناس تصديق تحولك، وقد يحتفظون بنسخة قديمة منك، لكن قبول التوبة ليس بأيديهم. ما دام الله فتح لك الباب، فلا تجعل نظرات البشر جداراً بينك وبينه.

(التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

تَوَّابٌ يكثر قبول عودة عباده، بل يوفقهم إليها أولاً ثم يقبلها منهم. ورحيمٌ لا يعامل التائب كمتهم تحت المراقبة الأبديّة، بل يطهره ويقربه إذا صدق.

الفصل الثامن والأربعون

اعملوا: فالحقيقة ستخرج من الأفعال

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

بعد الاعتراف والتوبة والصدقة يأتي الأمر بالعمل.

لا تجعلوا التوبة لحظة عاطفية تنتهي بانتهاء الدمع؛ ابنوا بعدها سيرة جديدة. فالصدق الذي عجز اللسان عن إثباته ستثبتته الأيام.

(فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ).

رؤية الله محيطَةٌ بالعمل ونيته وخفاياه، على الوجه اللائق بجلاله. ويرى الرسول ﷺ والمؤمنون ما يظهر من آثار الفعل، فتُبنى الثقة من جديد على سلوك مشهود.

الإسلام لا يحبس الإنسان في خطيئته، لكنه لا يجعل ادعاء التوبة بديلاً عن برهانها العملي. من أفسد شيئاً فليصلحه، ومن خذل موضعاً فليثبت في موضعٍ قادم، ومن منع حقاً فليؤده.

ثم يأتي الرد إلى: (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ).

قد يبدو العمل صالحًا في الشهادة، لكن الله يعلم ما وراءه في الغيب. وقد يخفى على الناس عملٌ صادق، فلا يضيع عند من يعلم السر والعلن.

(وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

وهناك صنفٌ لم يُحسم أمره بعد؛ أخر الحكم فيه إلى أمر الله، وهم الذين ستأتي قصتهم في شأن الثلاثة الذين حُلفوا.

إنهم لم يكذبوا كالمنافقين، ولم يُلحقوا أنفسهم فورًا بأصحاب الاعتراف الأول، فبقوا في مساحة الانتظار المؤلمة.

(إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ).

تربيةٌ قاسيةٌ للنفس كي تدرك أن التوبة ليست كلمةً سريعةً تُقال لتتخلص من ثقل الذنب، وإنما رجوعٌ كاملٌ ينتظر العبد فيه حكم ربه.

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

عليهم بصدقهم وما في قلوبهم، حكيماً في تأخير الحكم عليهم؛ فقد يكون الانتظار نفسه جزءاً من العلاج. بعض الأرواح لا يطهرها الاعتذار السريع، بل تحتاج أن تعيش فراغ البعد حتى تعرف قيمة القرب.

الفصل التاسع والأربعون

مسجد بُني ليهدم

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

هنا تبلغ السورة ذروة مدهشة في كشف الخداع: حتى المسجد يمكن أن يُستعمل ضد رسالة المسجد.

بُني جدار، ورُفِعَ سقف، وأُتخذ اسم العبادة، لكن المقاصد التي أقامته كانت أربعا:

ضرارا بالمؤمنين، وتقوية للكفر، وتفريقا للجماعة، وإعدادا لمصلحة من حارب الله ورسوله.

إن قداسة الاسم لا تطهر فساد الغاية. قد يُسمى المكان مسجداً، والمؤسسة خيرية، والمشروع إصلاحياً، لكن الأسماء لا تدخل وحدها ميزان الله؛ تدخل معها النيات والوظائف والآثار.

(وَلْيَخْلَفَنَّ إِنِ ارْتَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى).

كل مشروع باطل يحتاج واجهةً أخلاقية. لا يقول أصحابه: أردنا تفريق المؤمنين، بل يقولون: أردنا التيسير على الضعفاء والخير للناس. فالشر الخالص قلما يسرق نفسه باسمه الحقيقي؛ إنه يسرق مفردات الخير كي يعبر بها.

(وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

تقف أيمانهم كلها أمام شهادة الله فتسقط. وما قيمة ألف شاهدٍ من البشر إذا شهد خالق القلوب على كذب النية؟

إن أخطر الصراعات ليست دائماً بين مسجدٍ وحانة، بل قد تكون بين مسجدٍ أسس على التقوى ومسجدٍ اتخذ الدين ستاراً للتفريق.

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ).

جاء الحكم واضحاً: (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا).

فوقوف النبي ﷺ فيه كان سيمنحه شرعيةً لا يستحقها، وربما استطاع المنافقون بعد ذلك أن يجعلوا صلاته شهادةً لهم. والقائد لا يملك أن يمنح حضوره لكل مشروعٍ يحمل اسماً صالحاً؛ فوجوده قد يتحول إلى ختمٍ يستعمله أهل الباطل.

ثم تقيم الآية المقارنة: (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ).

القضية في الأساس. قد تتشابه المباني فوق الأرض، لكن أحدها خرج من بذرة التقوى، والآخر خرج من بذرة الضرار. والزمن لا يغير طبيعة البذرة إلا بتوبة وإعادة تأسيس صادقة.

(فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا).

لم يقل فقط: يتطهرون، بل يحبون التطهر. فهناك فرق بين طاعة يؤديها الجسد كعادة، وطهارة يحبها القلب ويطلبها. إنهم يحبون نظافة الظاهر من الأقدار، وطهارة الباطن من الذنوب والغل والغش.

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ).

من أحب الطهارة وأخذ بأسبابها أحبه الله. وما أعظمها من مقابلة: رجال يحبون أن يتطهروا، وربهم يحبهم لأجل سعيهم في التطهر.

(أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَقَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

تصور الآية مشروعين متشابهين في الظاهر، مختلفين في الأساس.

الأول أُسس على تقوى الله وطلب رضوانه. والثاني بُني على طرف أرضٍ متآكلة، تبدو ثابتةً للعين، لكن الماء أكل باطنها، ولم يبق بينها وبين الانهيار إلا لحظة.

(شَفَا جُرْفٌ هَارٍ).

هذه صورة النفاق كلها: واجهة قائمة، وفراغٌ تحتها. كلمات كبيرة، وأساس متآكل. مبنى يثير الإعجاب، لكنه يحمل سبب سقوطه في موضع لا يراه الناظرون.

ثم لا يقول: فانهار البناء وحده، بل: (فَانْهَارَ بِهِ).

حمل صاحبه معه. فالإنسان لا يبني المشروعات فحسب؛ المشروعات تعيد بناءه، فإذا أُسس مشروعه على الكذب صار جزءًا من كذبه، وسقط حين سقطت.

كل عمل يسألنا قبل حجمه وجماله: على أي أرضٍ أقيم؟ ما النية التي وضعت حجره الأول؟ وما الغاية التي يستتر إليها؟

فالأساس المتين قد يحمل بناءً متواضعًا حتى يكبر، أما الأساس الفاسد فلا تنقذه زخارف الواجهة.

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

لم ينته أثر مسجد الضرار بهدم جدرانه؛ فقد بقي بنيانه المعنوي ريبَةً في قلوبهم. ذلك أن الإنسان إذا استثمر في الباطل وقتًا وجهدًا ومكانةً، يصبح الاعتراف بفساده مؤلمًا؛ فيتشبث به لا لقوته، بل لأن سقوطه يسقط الصورة التي بناها لنفسه.

(إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ).

تظل الريبة تعمل في الداخل حتى الموت، ما لم تدركهم توبةٌ صادقة. فالمباني قد تُهدم في ساعة، لكن الأفكار التي بنتها قد تحتاج زمنًا أطول لتخرج من القلوب.

ولهذا لا يكفي في إصلاح الفساد إزالة الهيكل؛ لا بد من معالجة المعنى الذي أنشأه. وإلا أقام أصحابه بناءً آخر باسمٍ جديد فوق الأساس نفسه.

وتنتهي الآية بـ: (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

يعلم ما تحت الجدران من نيات، وحكيماً حين يهدم مبنى ظاهره العبادة لأن بقاءه كان هدمًا للجماعة.

فليس كل هدمٍ تخريبًا؛ قد يكون الهدم هو الطريق الوحيد لإنقاذ ما حاول البناء
المزور أن يهدمه.

الفصل الخمسون

الصفقة التي يربح فيها الإنسان نفسه

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

بعد الحديث عن بناء أسس على الخداع، تعرض السورة عهدًا آخر أسس على الصدق: عهد المؤمن مع الله.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى).

والله هو الذي خلق الأنفس والأموال، فهي ملكه ابتداءً، لكنه من كرمه عامل عباده معاملة المالكين، ثم اشترى منهم ما وهبهم، وجعل ثمنه الجنة.

يعطيك النفس، ثم يقبلها منك إذا بذلتها في طاعته. ويعطيك المال، ثم يثيبك إذا أنفقته في سبيله. فالعبد داخل فضل الله من أول الصفقة إلى آخرها: رأس المال منه، والتوفيق منه، والقبول منه، والثمن من فضله.

وما أعجب هذه التجارة! الإنسان في صفقات الدنيا يبيع شيئاً ليخسره من يده، أما في هذه البيعة فإنه يسلم نفسه لله ليجدها عنده أكمل وأبقى.

(بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ).

لم يجعل الثمن نصرًا دنيويًا قد يقع أو يتأخر، ولا شهرةً أو سلطانًا، بل الجنة؛ حتى يبقى المؤمن وفيًا لبيعته ولو لم يرَ في حياته ثمرةً عاجلة. هو لا يعمل بعقدٍ قصير ينتهي عند حدود الدنيا، بل بعهدٍ يمتد إلى الآخرة.

ثم يذكر القتال في سبيل الله، وهو قتالٌ مشروعٌ منضبطٌ بأمر الله وسلطان الجماعة، لا فوضى للأفراد ولا رخصةً للعدوان. إن النفس لا تُبذل في سبيل غضبٍ شخصي أو عصبيةٍ أو طلب دنيا؛ وإنما : (فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

هذه الكلمة هي التي تمنح التضحية معناها، وتضع عليها قيودها الأخلاقية. فليس كل قتال جهادًا، ولا كل موت شهادة؛ إنما العبرة بالسبيل والنية والضوابط التي شرعها الله.

(وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ).

إنه عهد الرسالات كلها؛ فالإيمان لم يكن يومًا زينةً عقليةً بلا تكليف، بل تسليماً لله يقتضي أن تكون النفس والمال في طاعته.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ).

قد يدخل الإنسان صفقات الأرض وهو يخشى عجز الطرف الآخر أو غدره، أما هنا فالمشتري هو الله، ووعدته حق، وخزائنه لا تنفذ، ولا يضيع عنده مثقال ذرة.

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ).

لم يقل: اصبروا عليه وحده؛ بل استبشروا. لأن الذي يعرف الثمن لا يرى البذل خسارةً، وإن آلمه الفراق. قد تبكي العين وهي تبذل، لكن القلب يستبشر بما عند الله.

الفصل الحادي والخمسون

ملاحم الذين باعوا أنفسهم لله

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ).

بعد أن ذكرت الآية الصفقة، وصفت أصحابها. فليسوا عشاق موتٍ ولا طالبي عنف، بل أصحاب عبادة وتوبة وحمد وركوع وسجود وإصلاح.

أول صفاتهم: (التَّائِبُونَ).

كأن الطريق إلى كل مقام يبدأ من الاعتراف بالنقص والرجوع إلى الله. لا يدخل المؤمن البيعة وهو يزعم الطهارة المطلقة؛ بل يدخلها بقلب يعرف عثراته ويجدد عودته.

والتوبة ليست مرحلة للعصاة ثم تنتهي، بل منزلة دائمة للسائرين؛ فكلما عرف العبد ربه أكثر رأى تقصيره أوضح، وكلما اقترب من النور أبصر ما لم يكن يراه في نفسه.

(الْعَابِدُونَ).

جعلوا الحياة كلها في جهة العبودية؛ فلا تكون لهم هويةً مع الله وهويةً أخرى خارجه. في المسجد عابدون، وفي المال عابدون، وفي الموقف عابدون، وفي القوة والضعف عابدون.

(الْحَامِدُونَ).

يرون يد النعمة في أيام العطاء، ويرون حكمة الله في أيام المنع. والحمد أوسع من الشكر؛ إنه امتلاء القلب بتعظيم الله والثناء عليه لكماله، مع الاعتراف بفضله.

(السَّائِحُونَ).

فسرّها جماعة من السلف بالصائمين، وقيل: السائرون في الطاعة وطلب العلم والجهاد والهجرة. وفي الصوم سياحةً من نوع آخر؛ يخرج الإنسان من سلطان عاداته وشهواته، دون أن يغادر مكانه.

(الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ).

الذين يقفون في ميدان الجهاد هم أنفسهم الذين تنحني ظهورهم وتوضع جباههم على الأرض. ليست قوتهم انفصلاً عن العبودية، بل خرجت منها. ومن لم يتعلم السجود لله قد تتحول قوته إلى استعلاءٍ على خلقه.

(الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ).

لم ينغلق صلاحهم على أنفسهم؛ فالنور الذي ملأ القلب تحرك إلى المجتمع. يريدون إنقاذ المعنى العام للحياة، لا بناء جزيرة فردية من الطهر وسط بحرٍ يبتلع الجميع.

ثم تأتي الصفة الجامعة: (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ).

فالحماس وحده لا يكفي. قد يأمر الإنسان بالمعروف بطريقةٍ منكرة، أو يزعم نصرة الدين وهو يتجاوز حدوده. والمؤمن لا يحفظ مقصد الدين بإهدار حكمه، ولا ينصر الحق بباطل.

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ).

لم يذكر المبتشر به هنا، كأن أبواب البشارة أوسع من أن تُحصَر: رضا، وقرب، وسكينة، ونصر، وجنة. يكفي أن تأتي البشارة من الله حتى يمتلئ القلب بما لا تسعه العبارة.

الفصل الثاني والخمسون

حين يقف الإيمان عند حدّ القربة

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ).

للإيمان تكاليف تمس أعمق مواضع القلب: موضع القربة.

قد يحب المؤمن قريباً مات على الشرك، ويتمنى لو كان له طريق إلى النجاة، لكن العاطفة لا تغير حقائق الآخرة، ولا تملك أن تتجاوز حكم الله بعد أن يتبين موت الإنسان على ما يوجب العذاب.

(وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى).

القربة تحفظ حق البر في الدنيا مع الحي غير المحارب، لكنها لا تمنح أحداً حقاً على الله في الآخرة. فالنجاة لا تورث بالنسب، ولا يُنقل الإيمان من قلب إلى قلب كما تنتقل الأموال.

وهذه من أشد حقائق التوحيد: أن الله يحكم بين عباده بالعدل، لا بالأنساب التي يتعلق بها البشر. فلا النبوة تستطيع أن تنقذ قلباً أصر على الكفر، ولا صلاح الابن يكتب تلقائياً للأب.

لكن الآية لا تطلب من القلب أن يفرح بمصير أحد، ولا تمنع الحزن الإنساني؛ إنما تمنع الاستغفار لمن مات مشركًا بعد أن انقطع عمله وتبين أمره.

في العقيدة وضوح، وفي القلب رحمة، ولا تعارض بينهما.

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ).

قد يُستدل باستغفار إبراهيم لأبيه، فجاء القرآن يبين سببه ومساره. لقد وعده إبراهيم أن يستغفر له رجاء هدايته ما دام حيًّا، فلما تبين له إصراره وموته على عداوة الله، تبرأ من شركه ولم يستمر في الاستغفار له.

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ).

لم يكن تبرؤه نابعًا من قسوة؛ بل كان أوَّاهًا، كثير التضرع رقيق القلب، حلِيمًا لا يعجل بالغضب. وهذا الوصف بعد البراءة بالغ الدلالة: المفاصلة العقدية لا تحتاج قلبًا قاسيًا، بل قد تصدر عن قلبٍ شديد الرحمة حين ينقاد لله فوق ألمه.

لقد جادل قومه بالحجة، وخاطب أباه بالطف النداء: (يَا أَبَتِ)، وصبر على أذاه. فلما جاء الحد الذي لا يملك تجاوزه، قدّم حق الله دون أن يفقد رقة روحه.

إن الثبات لا يعني الجفاف، والوضوح لا يعني الفضاظة. قد يكون الإنسان حاسمًا في الحق، وقلبه يقطر حزنًا على من رفضه.

الفصل الثالث والخمسون

الله لا يؤاخذ قبل البيان

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

تأتي هذه الآية سكناً للقلوب التي ربما فعلت شيئاً قبل نزول حكمه، ومنها ما اتصل بالاستغفار للمشركون.

فالله لا يؤاخذ عباده على حَدٍّ لم يبيّنه لهم، ولا ينسبهم إلى الضلال بعد الهداية حتى تقوم عليهم الحجة فيما ينبغي اجتنابه.

(حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ).

البيان يسبق المؤاخذه. وهذه قاعدة من عدل الله ورحمته؛ لم يخلق الإنسان ثم يتركه في متاهة ويعاقبه على اختيار الطريق الخطأ بلا دليل، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب ونصب الآيات.

وكلما ازداد البيان ازدادت المسؤولية. فمعرفة الحكم ليست معلومة تضاف إلى الذهن فقط، بل أمانة تدخل بها النفس في امتحان جديد.

(مَا يَتَّقُونَ).

لم يقل فقط: ما يفعلون، بل ما يتقون؛ فالمعرفة القرآنية تصنع حساسيةً أخلاقية تجعل الإنسان يرى مواقع الخطر قبل أن يسقط فيها.

ثم يطمئن القلب : (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

يعلم متى بلغك البيان، وماذا فهمت منه، وما قدرت عليه، وما التبس عليك. لا تضيع عنده الفروق الدقيقة التي قد تضيع في أحكام الناس.

(إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ).

بعد الأحكام التي قد تثقل على العاطفة، يعيد القرآن القلب إلى أصل التسليم :
(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

له الخلق والحكم، ومن ملك الوجود كله كان حكمه صادرًا عن علم لا يحده شيء، وحكمة لا يختل معها ميزان.

(يُحْيِي وَيُمِيتُ).

الحياة التي نحبها، والموت الذي نفر منه، كلاهما تحت سلطانه. فلا تملك القراية أن تؤخر أجلاً، ولا العداوة أن تعجل ما لم يكتبه الله.

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ).

فلا تجعلوا العواطف أو الجماعات أو الأشخاص موالى في المقام الذي لا يكون إلا لله. كل من نحتمي بهم واقفون معنا تحت الملك نفسه، محتاجون إلى الولي الذي نحتاج إليه.

الفصل الرابع والخمسون

ساعة العسرة: حين كاد التعب يميل بالقلوب

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ).

يسمى القرآن غزوة تبوك: (سَاعَةُ الْعُسْرَةِ).

مع أن الرحلة استغرقت زمناً، جمعها في ساعة؛ لأن الشدة مهما طالت تنكمش حين تُرى من نهايتها. كل عسرٍ سيصبح يوماً في الذاكرة «ساعة»، ويبقى ما صنعه في القلب.

كانت العسرة في الزاد والركائب والحر والمسافة. حتى إن جماعةً كانوا يتعاقبون على البعير، واشتد بهم الجوع والعطش. ومع ذلك اتبعوا الرسول ﷺ.

لكن القرآن لا يحولهم إلى كائناتٍ لا تتعب: (مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ).

اقتربت بعض القلوب من الميل تحت ثقل المشقة، لكنها لم تسقط. فالصحابا بشر، عظمتهم ليست في غياب الضعف البشري، بل في أنهم قاوموه، وأدركتهم عناية الله فثبتوا.

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ).

جاءت التوبة بمعنى التوفيق والرحمة والقبول؛ أقبل عليهم بلطفه قبل أن يقدرُوا على تمام الإقبال. فكل ثباتٍ للعبد يسبقه تثبيتٌ من الله، وكل رجوعٍ إليه يسبقه فتحٌ منه.

(إِنَّهُ بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ).

لم يقل: إنه بهم شديد لأنهم كادوا يزيغون، بل ختم بالرافة والرحمة. علم ضعفهم، ورأى صدقهم، فلم يجعل لحظة التعب تمحو تاريخ الاستجابة.

ما أرحم الله! لا يحاسب المؤمن الصادق كأن خاطر الضعف فعلٌ مكتمل، بل يعينه حتى يعبره، ثم يكتب له شرف العبور.

الفصل الخامس والخمسون

الثلاثة الذين ضاقت عليهم الأرض

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع رضي الله عنهم. لم يكونوا منافقين، ولم يملكوا عذراً، ولم يكذبوا.

تخلفوا تسويقاً حتى فات الجيش. فلما عاد النبي ﷺ جاء المنافقون بالأيمان والأعذار، فقبل منهم ظاهرهم ووكل سرائرهم إلى الله. أما هؤلاء فقالوا الحقيقة، مع أنهم كانوا قادرين على اختراع قصة تنجيهم من العقوبة العاجلة.

كان صدقهم سبب ألمهم، ثم صار سبب نجاتهم.

(الَّذِينَ خُلِفُوا).

لم يقل المتخلفين فحسب؛ بل أحرّ أمرهم، وتأخر الحكم في توبتهم خمسين ليلة. قوطعوا حتى صار المجتمع من حولهم صامتاً، لا يرد عليهم السلام.

(ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ).

الأرض الواسعة لا تمنح الإنسان سعةً إذا فقد طمأنينة الصلاة بالله. كانت المدينة هي المدينة، والبيوت هي البيوت، لكن الأشياء فقدت ألفتها.

ثم اشتد الضيق : (وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ).

إذا ضاقت الأرض أمكن أن ترحل عنها، أما إذا ضاقت عليك نفسك فأين تذهب؟ تحمل سجنك معك إلى كل مكان.

وهنا وصلوا إلى المعرفة التي أراد الله أن يستخرجها من أعماقهم: (أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ).

لا تستطيع أن تهرب من حكمه إلا إلى رحمته، ولا من غضبه إلا إلى رضاه، ولا من ألم البعد إلا إلى باب القرب. الله ليس طرفاً تخاف منه فتبحث عن جهة أخرى تحميك؛ هو الجهة التي تفر إليها منه وإليه.

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا).

تاب عليهم أولاً بالتوفيق، فاستطاعوا أن يتوبوا. حتى التوبة التي نظرت بها بابه هبةً فتحها هو في قلوبنا. لو لم يوقظ الندم، ويمنح الصدق، ويحفظ القلب من اليأس، لما عرف العبد طريق العودة.

فلما نزلت توبتهم، انطلقت البشارة إلى كعب، فعلم أن صدقه الذي أوجعه
خمسین ليلة أنقذه إلى الأبد. أما الكذبة فكانت ستريحه ساعةً، ثم تحمله إلى شقاءٍ
لا ينتهي.

الفصل السادس والخمسون

الصدق: البيت الذي لا ينهار بصاحبه

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ).

تأتي هذه الآية بعد قصة الثلاثة كأنها الثمرة التي نضجت من خمسين ليلة من الألم.

لم يقل: قولوا الصدق في هذا الموقف فحسب، بل: (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ).

الصدق ليس جملةً صحيحةً يقولها الإنسان، بل بيئةٌ يعيش فيها وهويةٌ ينتمي إليها. كن صادقًا في عقيدتك، ووعدك، وعذك، وعذرك، وحبك، وتوبتك، وخوفك، وفي الصورة التي تقدم بها نفسك للناس.

ثم اختر صحبة الصادقين؛ لأن الأخلاق تُعدي. من عاش بين المبررين تعلّم كيف يصنع للخطأ حجة، ومن عاش مع الصادقين استحيا أن يضع على وجهه قناعًا.

كان المنافقون أكثر راحةً في الأيام الأولى؛ حلفوا فقبل ظاهرهم، وعادوا إلى بيوتهم. أما الصادقون فعاشوا الحصار والضيق. لكن حين نزل القرآن، صار الصادقون آيةً تتلى، وبقيت أعدار الآخرين وصمةً في سجل النفاق.

وهكذا قد يدفع الصدق ثمنه عاجلاً، لكنه لا يترك صاحبه في نهاية الطريق.
والكذب قد يمنح مهرباً سريعاً، لكنه يهدم خلف صاحبه كل جسور العودة.

الفصل السابع والخمسون

المدينة التي لم يعد يليق بها القعود

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ).

ليس لأهل المدينة الذين يعيشون إلى جوار الرسول ﷺ، ويرون الوحي ينزل، أن يجعلوا أنفسهم أعز عليهم من نفسه.

(وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ).

كيف يطلبون لأنفسهم ظلاً لم يطلبه الرسول لنفسه، ويختارون سلامة تركها وهو يحمل عنهم أثقال الطريق؟

والآية لا تحصي نتائج المعركة وحدها، بل تحصي تفاصيل الألم: (ظَمَأٌ)، و(نَصَبٌ)، و(مَخْمَصَةٌ).

عطش، وتعب، وجوع. كل إحساس مرّ بالجسد كُتب عملاً صالحاً إذا كان في سبيل الله. لم يضع الألم لأنه لم ينتج عنه فتح عسكري مباشر؛ نفس احتمال عبادته.

وهذا يفتح بابًا واسعًا لفهم الأجر: ليس المكتوب لك النتيجة فقط، بل الطريق إليها. الخطوة، والتعب، والانتظار، والجوع، والقلق الذي صبرت عليه، كلها تدخل في الحساب.

قد يفشل الإنسان في بلوغ غايته بعد بذل الوسع، لكن صحيفته لا تُكتب بلغة النتائج البشرية وحدها. عند الله لا تضيع المسافة لأنك لم تصل إلى الصورة التي أردتها.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ).

قد ينسى الناس من حمل الزاد، ومن مشى في آخر الصف، ومن سقى رفيقه جرعةً وأثره على نفسه، لكن الله لا يضيع شيئًا. وما حُفظ عند الله لا يضره أن يغيب عن ذاكرة الأرض.

(وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

الصغير مكتوب، والكبير مكتوب، والوادي الذي يقطعونه مكتوب.

كم من أعمال الخير يتركها الإنسان لأنه يراها صغيرة! كأن الله لا يرى إلا المشروعات الضخمة، وكأن الميزان لا يلتقط إلا ما صَفَّقَ له الناس.

لكن الآية تبدأ بالصغيرة قبل الكبيرة؛ لتقول للقلب: لا تحتقر منفذاً إلى الله. تمرّة، أو جرعة ماء، أو خطوة، أو كلمة تثبتت، قد تكون عنده أكبر من عملٍ ضخم أفسدته النية.

(وَلَا يَفْطُونِ وَإِيًّا).

حتى المكان الذي عبرته أقدامهم دخل صحائفهم. فالمسافة في سبيل الله ليست فراغاً بين عمليْن؛ إنها من العمل.

ثم يأتي الفضل: **(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).**

لا يجازيهم على متوسط أعمالهم، بل بأحسنها؛ يتفضل عليهم فيرفع بقية العمل إلى مقام أحسنه. إن العبد يأتي بعملٍ تختلط فيه لحظات القوة والضعف، فينظر الله إلى أجمل صدقه ويكرمه بما يليق بفضله.

الفصل الثامن والخمسون

التوازن بين حراسة الثغور وحراسة المعنى

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ).

بعد هذا الحث الشديد على النفير، تقيم الآية ميزانًا يمنع الحماس من أن يفرغ المجتمع من وظائفه الأخرى.

لا ينبغي أن يخرج المؤمنون جميعًا في كل حال؛ لا بد أن تبقى طائفة أو تنفر طائفة لطلب الفقه — على ما تحتمله الآية من اتجاه الحركة — حتى تحفظ العلم، وتتفقه في الدين، ثم تعود بالبيان إلى قومها.

فالمجتمع لا يُحمى بالسلاح وحده؛ يحتاج من يحرس حدوده، ومن يحرس وعيه. وقد تنهزم أمة لم يُخترق سورها، إذا اخترق معنى الدين في داخلها.

(لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ).

لم يقل: ليحفظوا معلوماتٍ عنه. الفقه نفاذٌ إلى المعاني والمقاصد، وفهمٌ لما يصلح تنزيله على الواقع دون تحريف. إنه علمٌ يجعل صاحبه أبصر بأمر الله، وأرحم بعباده، وأشدَّ خوفًا من القول عليه بغير علم.

ثم لا يحتفظون بالفقه منزلةً شخصية: (وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ).

العلم رحلةٌ تبدأ من الأمة ثم تعود إليها. من خرج ليتعلم ثم جعل علمه سلماً للعلو على قومه خان غاية النفير. العالم يعود بالهداية، لا بالاستعلاء؛ وبالمسئولية، لا بمجرد اللقب.

(لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ).

ثمرة العلم ليست كثرة المصطلحات، بل يقظة القلب، واستقامة الطريق، وحذرٌ يمنع الإنسان من الاقتراب من حدود الهلاك.

ويا له من توازن: طائفة تواجه الخطر في الخارج، وطائفة تواجه الجهل في الداخل. والسلاح إذا انفصل عن الفقه قد يضل وجهته، والفقه إذا انفصل عن مسئولية حماية الحق قد يتحول إلى ترفٍ بارد.

الفصل التاسع والخمسون

ابدأ بالخطر الأقرب

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

تضع الآية ترتيباً عملياً للمواجهة: يبدأ المجتمع بالخطر المحارب الأقرب الذي يليه؛ لأن ترك التهديد القريب والاندفاع إلى البعيد يفتح الظهر ويبدد القوة. وهذا من واقعية الشريعة: لا تخوض المعارك في الخيال وتترك الثغرة عند بابك. رتب واجباتك بحسب القرب والخطر والقدرة.

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً).

أي قوة وصلابة تمنع العدو من الطمع، لا ظلماً ولا غدرًا ولا تعدياً للحدود. والغلظة هنا خلق موقف، لا فساد قلب. فقد يكون المؤمن صلباً في حماية الحق، رحيماً بالضعيف والأسير، وفياً بالعهد.

والآية نفسها التي تأمر بالقوة تقيدها: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

لم تقل: مع الأغلظ دائماً، بل مع المتقين. فإذا تجاوزت القوة حدود التقوى خسرت معية الله، ولو ربحت جولة بمقاييس الأرض.

إن القوة الإسلامية ليست انفلات القدرة، بل قدرتها على ضبط نفسها بأمر
الله.

الفصل الستون

السورة التي تزيد قلباً إيماناً وتزيد آخر رجساً

(وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَكُنْمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ).

النص واحد، لكنه لا يدخل القلوب كلها بالطريقة نفسها.

يسمعه المؤمن فيزداد إيماناً؛ لأن الآية تفتح له باباً جديداً من المعرفة والعمل، وتربط ما تفرق في قلبه، وتكشف له عن ربه وطريقه ونفسه.

(وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ).

يستقبلون الوحي بالبشارة، حتى حين يحمل تكليفاً؛ لأنهم يرون في كل أمرٍ جديد عنايةً من الله تهديهم إلى ما يحب.

أما صاحب القلب المريض فيستقبل الآية بعينٍ تبحث عن ثغرة للاعتراض، لا نافذة للهداية: (فَرَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ).

وليس القرآن هو الذي يحمل الرجس، حاشاه؛ وإنما المرض الكامن يحول الدواء — بإعراض صاحبه — إلى سببٍ لانكشاف المرض واشتداده. كما أن

نور الشمس يؤلم العين المريضة، لا لأن في النور ظلمة، بل لأن العين فقدت سلامتها.

كل آية تضع سامعها أمام اختيار: إما أن يفتح لها موضعًا في قلبه، وإما أن يبني ضدها طبقةً جديدةً من المقاومة. ولذلك يخرج اثنان من المجلس نفسه: أحدهما أقرب إلى الله، والآخر أبعد، مع أن الصوت الذي سمعاه واحد.

(وَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ).

كانت تأتيهم الفتن الكاشفة: خوف، أو مرض، أو انكشاف، أو امتحان يريهم هشاشة ما يعتمدون عليه. ثم تمر الصدمة، ويعودون كما كانوا.

(ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ).

ليست المشكلة أن الإنسان لا تُرسل إليه الإشارات، بل أنه ينجو منها دون أن يفهمها. تمر به الحادثة التي كان يمكن أن تعيد تشكيل حياته، فيعالج آثارها الظاهرة ثم يعيد قلبه إلى الغفلة نفسها.

(وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ).

التذكر ليس استعادة الواقعة في الذهن، بل استعادة رسالتها. قد يحفظ الإنسان تاريخ مرضه، ولا يتذكر ضعفه. ويحفظ يوم نجاته، ولا يتذكر المنجي.

بعض الابتلاءات رسائل ثقيلة؛ لا تُقرأ بالحروف، بل بما تكشفه فيها. ومن لم يتعلم من المرة الأولى، عادت إليه السنن بصورة أخرى، لا لأن الله يريد تعذيبه، بل لأن قلبه ما يزال بحاجة إلى أن يستيقظ.

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ).

يا لدقة المشهد!

تنزل السورة، وتُتلى الآيات، لكن بدل أن تنتظر قلوبهم في كلام الله، تنتظر عيونهم بعضها إلى بعض: (هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ).

إنها نظرة التواطؤ الصامت: هل الطريق آمن للانسحاب؟ هل يراقبنا أحد؟ ثم يخرجون بأجسادهم قبل أن يدخل المعنى إلى قلوبهم.

(ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ).

الجزء من جنس الفعل. انصرفوا اختيارًا عن مجلس الهدى، فكان الجزاء أن تُصرف قلوبهم عن الانتفاع به. وليس أشد من أن تسمع القرآن ثم تخرج منه كما دخلت، إلا أن تخرج أشد إعراضًا.

قد ينصرف الجسد لعذر ويبقى القلب حاضراً، وقد يجلس الجسد في الصف الأول والقلب بعيد. الانصراف الحقيقي ليس حركة القدم، بل أن تمر الآية على الإنسان فلا توقف فيه سؤالا، ولا تصلح موقفاً، ولا تهز غفلة.

(بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ).

لم يفتقدوا السمع، وإنما افتقدوا الفقه؛ سمعوا الألفاظ ولم يدركوا أنها تتحدث عنهم، وأن باب النجاة كان مفتوحاً في اللحظة التي بحثوا فيها عن باب الخروج.

ولم يبق من السورة بعد هذا إلا خاتمتها العظيمة؛ حيث تتحول الأنظار من قسوة المنافقين إلى قلب الرسول ﷺ، ذلك القلب الذي حمل الأمة حتى كاد يهلك أسفاً عليها، ثم تتوج السورة الرحلة بكلمة التوكل التي تعيد كل الأتقال إلى الله.

الفصل الحادي والستون والآخر

الرسول الذي عَزَّ عَلَيْهِ عَنْتُ أُمَّتُهُ

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ).

بعد رحلة طويلة بين البراءة والعهود، والجهاد والنفاق، والصدق والكذب، والتوبة والإعراض؛ تقف السورة في خاتمتها أمام القلب الذي حمل أثقال هذه الأمة كلها: قلب محمد ﷺ.

إن السورة التي كشفت المنافقين بشدة، وأعلنت البراءة بحزم، وأمرت بمواجهة العدوان، تختم بتعريف الرسول ﷺ من خلال الرحمة؛ حتى نعلم أن الحزم الذي مر بنا لم يكن قسوةً في قلبه، بل حمايةً للناس من الطريق الذي يهلكهم.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ).

لم يأتكم ملكًا تعجزون عن الاقتداء به، ولا غريبًا يجهل طبائعكم وآلامكم. جاءكم بشرًا من جنسكم، يعرف الجوع والتعب والحزن، ويمشي في الأسواق، ويفقد الأحبة، ويحمل هم الغد، ثم يريكم كيف يعبر الإنسان هذه الحياة موصولًا بالله.

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ).

فيها قرب النسب واللسان، وفيها ما هو أعمق: إنه قريبٌ من تجربتكم الإنسانية. لم يكلفكم بما لم يعيشه، ولم يدعكم إلى طريقٍ بقي هو في ظلّه. كان أول السائرين، وأكثرهم تعبًا، وأشدّهم بذلًا، حتى لم يكن في أتباعه من دفع من ثمن الرسالة مثل ما دفع.

قبل أن يقول لهم في تبوك: اخرجوا، خرج.

وقبل أن يأمرهم بالبدل، بذل.

وقبل أن يعلمهم الصبر، حاصرته الأحزان حتى صار الصبر جزءًا من سيرته.

إن القائد الحق لا يقف خلف التكليف دافعًا الناس إليه، بل يقف أمامهم حاملاً أثقل ما فيه.

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ).

العنت هو المشقة والهلاك والضرر. كل ما يشق على أمته ويؤذيها كان عزيزًا عليه، ثقیلاً في قلبه. لم يكن يتعامل مع الناس كأعدادٍ في مشروع، بل كأرواح يخاف عليها.

إذا جاعوا وجد ألم جوعهم.

وإذا أخطؤوا لم يشمت بسقوطهم، بل بحث عن طريق يعيدهم.

وإذا أبطأوا في الهداية كاد الحزن عليهم يستهلك نفسه.

ولذلك لم تكن أوامر الشريعة رغبةً في التضييق؛ فقد جاء النبي ﷺ برفع الأصار، وأحب اليسر الذي لا يبدد التكليف. وحين شدّد في موضع، فلأن الرخاوة فيه كانت ستقود إلى عنتٍ أشد.

قد يمنعك الطبيب ما تحب لأنه يكره ألمك، وقد يأخذك الدواء المر إلى العافية. وهكذا كانت شريعة الرسول ﷺ: ما يبدو فيها مشقةً عابرة إنما يحرس الإنسان من شقاءٍ أعمق.

إن الذي يشق عليه تعبك لا يمكن أن يدعوك إلى شيء ليعذبك؛ إنما يدعوك لينقذك من عذاب لا تراه.

(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ).

الحرص في استعمال البشر كثيرًا ما يتعلق بالمال والمكانة، لكن الرسول ﷺ كان حريصًا على الناس أنفسهم: على إيمانهم، وهدايتهم، ونجاتهم.

لم يكن حريصًا على أن تتكاثر الأجساد حوله مع بقاء القلوب بعيدة، بل كان يريد لكل إنسان أن يعرف ربه، ويسترد فطرته، ويصل سالمًا إلى الآخرة.

طرده أهل الطائف وأدموا قدميه، فلم يطلب استئصالهم؛ بل أبقى في دعائه نافذةً لأجيال لم تولد بعد.

قاتله قومه وأخرجوه من أحب البلاد إليه، فلما عاد قادرًا لم يجعل الفتح ساعة انتقام لنفسه.

كان يرى وراء المحارب إنسانًا قد تئوب روحه، ووراء العاصي مؤمنًا قد توقظه التوبة، ووراء الجفاء قلبًا ربما لم تصله الرحمة بالطريقة التي تفتحه.

وهذا الحرص هو الذي يفسر ألم السورة كله. كان النفاق يؤذيه لأنه يرى صاحبه يدفن نفسه تحت طبقات الكذب، وكان التخلف يحزنه لأنه يرى شرف الطريق يفوت القاعدين، وكان إعراض الناس ثقیلاً عليه لأنه يعرف المصير الذي يتجهون إليه.

إن أعظم الرحمة أن ترى الإنسان وهو يسير إلى هلاكه، فلا تستطيع أن تكون محايدًا.

(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ).

خص المؤمنين بمزيد من الرأفة والرحمة؛ فقد صاروا أمانةً في قلبه. يعلم ضعفهم، ويحمل جهلهم، ويعلم مخطئهم، ويستغفر لمذنبهم، ويقوي خائفهم، ويعود مريضهم، ويقف مع فقيرهم.

وهذان وصفان عظيمَا الدلالة، وهما هنا وصفان للرسول ﷺ بما وهبه الله من رحمةٍ بشريةٍ تليق بعبوديته ونبوته، أما كمال الأسماء والصفات فعلى الوجه اللائق بالله وحده، سبحانه ليس كمثله شيء.

الرافة تدفع الضرر، والرحمة تجلب الخير. فكأن النبي ﷺ كان يحوط المؤمنين من جهتين: يدفع عنهم ما يهلكهم، ويقودهم إلى ما يحييهم.

وكان من رأفته أنه لم يجعل تفوقه حاجزاً بينهم وبينه. جلس معهم، وسمع منهم، وحمل الصبي، ومسح دمة الحزين، وقبل عذر الصادق، وصبر على جفاء الجاهل.

لم تُفسده العظمة، ولم تصنع الرسالة حوله جداراً من الكبر؛ بل كلما ارتفع مقامه ازداد انحناءً على آلام الناس.

وكان خاتمة السورة تقول للمؤمنين: لقد جاءتكم الرسالة من عند الله، لكنها وصلت إليكم عبر قلبٍ أحب نجاتكم إلى هذا الحد؛ فلا تجعلوا هذا الحب شاهداً عليكم يوم تلقون الله.

الكلمة الأخيرة

حين يعود الرسول بأثقاله إلى الله

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).

بعد كل هذا الحرص، قد يتولى بعض الناس.

وهنا يضع القرآن الحد الفاصل بين مسئولية الداعية ومسئولية المدعو. عليك أن تبْلَغ، وتبيِّن، وتصبر، وتحزن حزن الرحمة، وتفتح أبواب العودة؛ لكنك لا تملك أن تخلق الهداية في القلب.

إذا تولوا فلا تجعل توليهم يهدمك، ولا تحمل نفسك ما لم يجعله الله في قدرتك.

(فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ).

كلمتان تُعيدان الروح من تشنتها بين الناس إلى مركزها الأول. الله كافيني حين يقل الناصر، وحين يكثر المتربصون، وحين لا تبلغ الكلمة القلوب التي أحبت لها الهداية.

ليست (حَسْبِيَ اللَّهُ) كلمة انسحابٍ من المسئولية؛ فقد جاءت بعد سورةٍ كاملة من العمل والجهاد والبيان وكشف النفاق وإقامة المجتمع. إنها كلمة يقولها من استنفد وسعه، لا من يريد أن يتخذ التوكل عذراً للكسل.

اعمل حتى تبلغ آخر قدرتك، ثم لا تحمل همّ النتائج كأن الكون وديعةً في يدك.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ).

هذا هو الأصل الذي تعود إليه السورة كلها.

من أجله برئ الإسلام من الشرك.

ومن أجله طُهر البيت.

ومن أجله نُقض عهد الخائن، وحُفظ عهد المستقيم.

ومن أجله خرج المؤمنون في ساعة العسرة.

ومن أجله افتضح المنافقون الذين جعلوا مصالحهم آلهة خفية.

التوحيد ليس عبارةً في أول الطريق فحسب؛ إنه القوة التي تحمل الإنسان إلى آخره. ما دام لا إله إلا الله، فلا رضا يُطلب بمعصيته، ولا خوفٌ يعلو على خشيته، ولا مالٌ يُقدّم على أمره، ولا بشرٌ يُمنح حقه المطلق.

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ).

قُدِّمَ الجار والمجرور لإفادة الاختصاص: عليه وحده يعتمد القلب اعتماد العباد، وإن أخذ بكل سبب مشروع.

وقد رأينا التوكل في السورة يمشي على قدمين:

إعدادٌ كامل، وافتقارٌ كامل.

فالرسول ﷺ خطط للهجرة، واتخذ الدليل، واختار الرفيق، واختبأ في الغار، ثم كان قلبه مطمئناً إلى الله: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا).

وأمر المؤمنين أن ينفروا خفاً وثقلاً، وأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ثم علّمهم أن يقولوا: (لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا).

فالتوكل ليس إلغاءً للسبب، وإنما تطهير القلب من عبادته. تأخذ السبب لأن الله أمرك، ولا تركز إليه لأن الله وحده يكفيك.

(وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).

تنتهي السورة بالعرش العظيم؛ حتى تصغر تحت عظمته كل القوى التي ملأت صفحاتها.

أين ناقضو العهود من رب العرش؟

وأين الروم وقوتهم؟

وأين المنافقون ومؤامراتهم؟

وأين الأموال والأولاد والمساكن والتجارات التي تتناقل الناس من أجلها؟

كلها ذراتٌ في ملك من هو رب العرش العظيم.

والعرش أعظم المخلوقات، والله ربّه ومالكه، مستوٍ عليه استواءٌ يليق بجلاله،
من غير تشبيهٍ ولا تكليف، سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

ومن كان رب العرش كافيه، فمِمَّ يخاف؟

ومن كان رب العرش مولاه، فعلى أي بابٍ يقف ذليلاً؟

ومن توكل عليه، فكيف يجعل قلوب الناس أو موازين الأرض مصدر
طمأنينته الأخيرة؟

إن السورة التي بدأت بكلمةٍ حادة فاصلة: (بَرَاءَةٌ)

تنتهي بكلمةٍ دافئة مطمئنة: (حَسْبِيَ اللَّهُ).

كأن الطريق بين الكلمتين هو رحلة تحرير القلب كاملة: يبرأ أولاً من الباطل،
ثم يجد كفايته في الله.

خاتمة الرحلة

التوبة: السورة التي نزلت لأقنعة لتُنقذ الوجوه

سُمِّيت السورة التوبة، مع أنها من أكثر سور القرآن حديثاً عن القتال والنفاق والمفاصلة؛ لأن مقصدها الأعمق لم يكن إغلاق الأبواب، بل فتح الباب الوحيد الذي ينبغي أن يدخل منه الجميع: باب العودة إلى الله.

فتحت التوبة للمشارك بعد القتال: (فَإِنْ تُبْتَغُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ).

وفتحها للمتأمل بعد كلمة الكفر: (فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ).

وفتحها لمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وفتحها للثلاثة الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

وذكرت توبة الله على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار في ساعة العسرة.

كان التوبة نهراً خفي يجري تحت أرض السورة كلها، يظهر كلما أوشكت قسوة الذنب أن تدفع الإنسان إلى اليأس.

غير أن التوبة في هذه السورة ليست كلمة رخوة؛ إنها اعتراف، وصدق، وتصحيح، وبذل، وانتظار لحكم الله، وسيرة جديدة يشهد عليها العمل.

لقد فرقت السورة بين ثلاثة قلوب:

قلْبُ أخطأ فكذب، فازداد نفاقًا.

وقلْبُ أخطأ فاعترف، فاقترَب من الرحمة.

وقلْبُ أخطأ وصدق، فذاق ضيق التهذيب حتى نزلت توبته قرآنًا.

فالخطأ وحده لا يحدد المصير؛ إنما يحدده موقف الإنسان بعد الخطأ. قد تكون العثرة أول طريق الهلاك إذا بررها صاحبها، وقد تكون أول طريق الولاية إذا قادتَه إلى انكسارٍ صادق بين يدي الله.

وكشفت السورة أن النفاق ليس كلمةً عقديّة مجردة، بل منظومة نفسية كاملة:

أن تحضر عند الغنيمة وتتخلف عند المغرم.

أن تجعل رضاك عن العدل تابعًا لنصيبك.

أن تستخدم اسم الله لتغطية الكذب.

أن تفرح لمصيبة المؤمنين.

أن تسخر من البازل إذا أكثر، ومن الفقير إذا قلّ.

أن تبني مسجدًا، بينما تهدم الجماعة.

أن تتخذ الدين صورةً لحماية المصلحة، لا حقيقةً تقودها.

وفي الجهة الأخرى رسمت السورة ملامح المؤمن:

يفي لمن وفى، ولو خالفه في الدين.

ويؤمّن المستجير حتى يسمع كلام الله، ثم يبلغه مأمنه.

ويخرج خفيًا أو ثقيلًا.

ويبذل المال والنفس.

ويحزن إذا عجز عن الطاعة.

ويعترف إذا أخطأ.

ويبني على التقوى.

ويركع ويسجد، ويأمر بالمعروف، ويحفظ حدود الله.

ثم إذا استنفذ وسعه عاد بقلبه كله إلى ربه وقال: (حَسْبِيَ اللَّهُ).

إن سورة التوبة لا تسمح لنا أن نكتفي بصورة جميلة عن إيماننا. إنها تأخذ

هذه الصورة إلى ساعة العسرة، وتضعها أمام المال والخوف والقراصة والحر

والعدو، ثم تنظر: ماذا بقي منها؟

هناك، حين ترتفع الكلفة، يسقط الطلاء عن الكلمات، ويظهر المعدن.

إنها سورة لا تجامل الإنسان، لكنها لا تئسسه. تفضحه أمام نفسه، ثم تمد إليه يد الرحمة. تهدم مسجد الضرار في داخله، لتقيم مكانه بنياناً على التقوى. تنتزع منه أعداره المزورة، لتعطيه كلمة صادقةً ينقذ بها عمره. تضيق عليه الأرض، حتى لا يجد ملجأً من الله إلا إليه.

وفي اللحظة التي يعود فيها منكسراً، يجد أن الباب الذي ظنه مغلقاً كان ينتظر صدقه: (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

وهنا تنتهي رحلتنا في السورة، وقد اكتمل التأمل في آياتها جميعاً إلى الآية التاسعة والعشرين بعد المائة.

لكن السورة لا تنتهي في القلب بانتهاء التلاوة؛ بل تترك فيه سؤالها الأخير:

بعد أن سقطت الأعدار، وانكشفت النيات، واتضح الطريق — من الذي يكفيننا؟

ولا يملك القلب المؤمن إلا أن يجيب بالكلمة التي ختم الله بها السورة: (حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).